الآخِرَةُ

الحَقِيقَةُ الَّتِي لَا تَنْتَظِرُ إِيمَانَنَا

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَّامِيّ

الآخرة

الحقيقة التي لا تنتظر إيماننا

قراءة قرآنية في الواقعة التي لا يلغيها الإنكار

تَأْلِيف: رَدَّاد السَّـلَّامِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة المنهجية

الحقيقة التي لا تتوقف عند باب الإنسان

ليست الآخرة فكرةً تنتظر من الإنسان أن يصدّقها لكي توجد، ولا احتمالًا معلّقًا بين الإيمان والإنكار حتى يحسم العقل البشري مصيره؛ إنها حقيقةٌ قائمة في خبر الله، مقضيّة في علمه، آتية في موعدها، لا يزيدها إيمان المؤمن تحققًا، ولا ينقصها إنكار الكافر وقوعًا؛ لأن الحقائق الكبرى لا تستمد وجودها من مواقف العابرين منها، ولا تتبدل كلما تبدلت تصوراتهم، وإنما يبقى الإنسان هو الذي يتغير موقعه منها: يقترب منها بالتصديق والاستعداد، أو يمضي إليها بالإنكار والغفلة، وهي في الحالتين قادمة لا تتوقف، وواقعة لا تستأذن.

إن الشمس لا تشرق لأن الناس آمنوا بوجودها، والموت لا يأتي لأن الأحياء صدّقوا خبره، والزمن لا يمضي بإجماع البشر على حركته؛ وكذلك الآخرة لا تقع لأن المؤمنين انتظروها، ولا تتأخر لأن المنكرين استبعدوها. إنها ليست بنت الوعي الإنساني، ولا صورةً كوَّنها الخوف في أعماق النفس، ولا تعويضًا أخلاقيًّا اخترعته المخيلة عن خسارات الأرض؛ بل هي واقعةٌ أخبر بها من يعلم غيب السماوات والأرض، وسمّاها قبل أن نراها الواقعة، ونفى عن وقوعها إمكان الكذب والتخلف: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾.

ومن هنا، لا ينطلق هذا الكتاب من حاجة الإنسان إلى الآخرة، بل من حقيقة الآخرة نفسها. فالحاجة إليها قد تشرح أثر الإيمان بها، لكنها لا تفسر وجودها؛ والعدل

الذي يتحقق فيها يكشف حكمتها، لكنه ليس الذي أنشأ حقيقتها؛ والمعنى الذي تمنحه للمؤمن ثمرةٌ من ثمار اليقين بها، وليس برهانًا على أنها صُنعت لتؤدي وظيفة نفسية أو أخلاقية. إننا لا نؤمن بالآخرة لأنها تمنح حياتنا معنًى فحسب، بل لأنها حق، ولو شقَّ هذا الحق على النفس، ولو أراد الإنسان حياةً بلا حساب، ونهايةً بلا بعث، ووجودًا لا يُسأل فيه عما فعل.

فالحق لا يصير حقًّا لأنه يريحنا، ولا يبطل لأنه يخيفنا. وقد تكون الحقيقة أعظم من حاجتنا إليها، وأثقل من رغبتنا في قبولها، وأشد استقلالًا عن وعينا من أن تخضع لمقاييس الطمأنينة والرفض. والآخرة هي الحقيقة التي تبلغ هذا المقام الكامل من الاستقلال عن الإنسان: لا تفاوضه في وجودها، ولا تجعل تصديقه شرطًا لمجيئها، ولا تمنحه بحق الإنكار قدرةً على تعطيلها؛ وإنما تمنحه زمنًا محدودًا ليختار موقفه منها قبل أن تنتقل من خبر يُصدَّق أو يُكذَّب إلى مشهدٍ تراه العيون ولا تملك دفعه.

إن المؤمن لا يخلق بإيمانه جنةً لم تكن، ولا يشعل الكافر بإنكاره نارًا لم تكن؛ وإنما يكشف الإيمان للمؤمن حقيقة الطريق فيسير على بصيرة، ويحجب الإنكار عن الكافر حقيقة المصير فيمضي إليه وهو غافل. وكلاهما يتحرك في اتجاه اليوم نفسه، ويستهلك من عمره المسافة الباقية إليه؛ غير أن أحدهما يعلم إلى أين يمضي، والآخر يظن أن جهله بالطريق سيمنع نهايته.

وسيكون هذا هو الفارق المنهجي الحاسم في الكتاب كله: الفصل بين حقيقة الآخرة في ذاتها، وبين أثر الإيمان بها في حياة الإنسان. فهي في ذاتها وعد الله الذي لا يتخلف، وقضاؤه الذي لا يُرد، والدار التي ينتهي إليها الخلق جميعًا؛ أما في وعي المؤمن فهي

الغايـة الـتي تعيـد ترتيب حياتـه، وفي وعي المنكر هي الحقيقـة المستبعدة الـتي يواصـل الاقتراب منها وهو ينفيها. فلا التصديق ينشئها، ولا التكذيب يمحوها، وإنما يكشف كل موقف عن صاحبه، بينما تبقى الآخرة ثابتةً وراء المواقف جميعًا.

وهكذا لن يكون السؤال الذي يقود هذا الكتاب: هل يحتاج الإنسان إلى الإيمان بالآخرة لكي تكون لحياته قيمة؟ بل سيكون السؤال الأشد صراحةً: ماذا يعني أن تكون الآخرة حقيقةً واقعة، سواء احتاج الإنسان إلى معناها أم لم يحتج، وسواء صدق خبرها أم عاش عمره كله منكرًا له؟

إنها لا تنتظر أن نفرغ من جدالنا كي تأتي، ولا أن تتوافق عقولنا على إمكانها، ولا أن تمنحها الفلسفات شهادة الوجود. إنها تقترب في صمت، ويقترب منها كل مولود منذ لحظة ميلاده، حتى إذا انتهى زمن الاختيار، لم تعد الآخرة قضيةً مطروحةً للإيمان والإنكار، بل أصبحت المشهد الذي يقف فيه المؤمن والمنكر معًا، ويعلم الجميع أن الحقيقة لم تكن يومًا في حاجة إلى تصديقهم، وإنما كانوا هم المحتاجين إلى تصديقها قبل أن يروها.

بهذا التصور نستطيع صياغة كتاب جديد مستقل، أشد حسمًا من الكتاب الأول، محافظًا على سرده الفكري الطويل، ولكن منقولًا من مركزية «الآخرة ضامنة المعنى» إلى مركزية «الآخرة حقيقة مستقلة عن المعنى وعن موقف الإنسان منها».

الفصل الأول

الحقيقة قبل الموقف منها

قبل أن نسأل: ما موقف الإنسان من الآخرة؟ ينبغي أن نسأل سؤالًا أسبق من الإنسان نفسه: هل تتوقف الحقيقة في وجودها على موقفه منها؟ وهل تصبح الأشياء واقعةً حين يؤمن بها، ثم تفقد واقعيتها حين ينكرها؟ أم أن للحقيقة وجودًا مستقلًّا عن الوعي الذي يعرفها، وعن العقل الذي يناقشها، وعن النفس التي تقبلها أو تنفر منها؟

هذا السؤال ليس مدخلًا فلسفيًّا زائدًا على موضوع الآخرة، بل هو الأساس الذي يتحدد عليه كل ما يأتي بعده؛ لأن كثيرًا من الاضطراب الحديث لم ينشأ من إنكار الآخرة صراحةً، وإنما من نقلها، دون شعور، من مجال الحقيقة الموضوعية إلى مجال الموقف الذاتي؛ حتى غدت عند بعض القراءات فكرةً دينية تخص المؤمنين، أو تصورًا روحيًّا يختاره من يجد فيه العزاء والمعنى، كما يختار الإنسان فلسفةً للحياة أو طريقةً في فهم الموت. وحين توضع الآخرة في هذا الموضع، يصبح الإيمان بها شأنًا نفسيًّا، ويغدو إنكارها اختيارًا فكريًّا مكافئًا له، كأننا أمام رؤيتين تصنع كل واحدة منهما عالمها الخاص، لا أمام خبرٍ واحدٍ عن مصيرٍ مشترك يمضي إليه المؤمن والمنكر جميعًا.

غير أن القرآن لا يعرض الآخرة بهذه الصيغة، ولا يقدمها اقتراحًا للوعي، ولا احتمالًا ينتظر ترجيح الإنسان، ولا معنًى وجوديًّا يستطيع المرء أن يتبناه أو يستغني عنه. إنه يخبر عنها بلغة الحقيقة التي فرغ أمرها، وثبت موعدها، واستحال تخلُّفها؛ فيسميها الواقعة، والحاقة، والساعة، ويوم الفصل، ويوم الدين، وكأن كل اسم من هذه

الأسماء ينزع عنها طبقةً من الاحتمال، ويحررها من سلطة الظن، ويضعها أمام الإنسان لا بوصفها موضوعًا يختبره، بل بوصفها مصيرًا يختبر صدقه واستعداده.

فالواقعة هي التي ستقع، والحاقة هي التي تحق وتُحقُّ الحقائق، والساعة موعدٌ مضروب لا يتقدم ولا يتأخر، ويوم الفصل نهاية تنقطع عندها سيولة الأعذار، ويوم الدين يومٌ تظهر فيه تبعة كل ما فعله الإنسان حين كان يظن أن أفعاله تمر ثم تنتهي. ليست هذه أسماءً تخييلية تستثير الرهبة في النفس، بل أوصافٌ معرفية تحدد طبيعة اليوم الآتي: يومٌ لا يستمد يقينه من قربه في حساب البشر، وإنما من صدق الذي أخبر به، ولا يتوقف مجيئه على قدرة العقل الإنساني على تصور كيفيته.

الحقيقة لا تستأذن الوعي

إن الخطأ الأول الذي ينبغي تحرير العقل منه هو توهم أن ما لا يحضر في وعينا لا يكون موجودًا إلا على سبيل الاحتمال. فالوعي نافذة على الوجود، وليس خالقًا له؛ وأدوات الإدراك وسائل لاكتشاف الحقيقة، وليست مصانع تنتجها. كم من أشياء كانت قائمةً قبل أن يعرفها الإنسان، وكم من قوانين كانت تعمل قبل أن يصوغ لها أسماء، وكم من وقائع اقتربت منه وهو غافل عنها، فلم يمنعها جهله من الوصول، ولم يؤخرها عجزه عن تصورها.

كانت النجوم في مداراتها قبل أن يرفع الإنسان إليها أدواته، وكانت أعماق البحار مكتظةً بأسرارها قبل أن يغوص فيها، وكانت الأمراض تسري وفق قوانينها قبل أن تُكتشف أسبابها، وكان الموت يسير إلى الناس قبل أن يتفق الفلاسفة على تفسيره. لم

يمنح الاكتشاف تلك الأشياء وجودها، بل منح الإنسان علمًا بوجودها؛ ولم تكن الحقيقة تنتظر المعرفة حتى تبدأ، بل كانت المعرفة هي التي تأخرت عنها.

وهذا الفارق بين وجود الشيء ومعرفة الإنسان به هو المدخل الضروري لفهم الآخرة؛ فالآخرة لا تقع داخل الوعي حتى تكون حقيقتها تابعةً له، بل تقع في نظام الوجود الذي خلقه الله، وقد أخبر بها من أحاط علمه بما كان وما يكون. إن إيمان المؤمن بها لا ينقلها من العدم إلى الوجود، وإنما ينقل المؤمن من الجهل بها إلى معرفتها، ومن الغفلة عنها إلى الاستعداد لها. وكذلك إنكار المنكر لا يخرجها من الوجود، وإنما يخرجها من مجال اعتباره، فتظل قادمةً إليه بينما يعيش هو كما لو أنها لن تأتي.

إن الإنسان يستطيع أن يعطل أثر الحقيقة في نفسه زمنًا، لكنه لا يستطيع تعطيل الحقيقة ذاتها. يستطيع أن ينكر المرض، لكنه لا يوقف أثره في جسده؛ وأن يهمل الخطر، لكنه لا يسلبه قدرته على الوصول؛ وأن يرفض خبر الموت، لكنه لا يُسقط عنه حكم الفناء. والإنكار، في جميع هذه الحالات، لا يقع على الحقيقة، بل يقع على صلة الإنسان بها؛ فلا تتضرر الحقيقة من رفضه، وإنما يتضرر هو من سوء تقديره لها.

وكذلك الآخرة: لا يغيّرها التكذيب، بل يغيّر موقع المكذب منها. لا يلغي موعدها، بل يلغي استعداده له. لا يحولها إلى وهم، بل يحول حياته هو إلى حركةٍ عمياء نحو حقيقة لم يحسب حسابها.

الإيمان كشفٌ لا إنشاء

حين يؤمن الإنسان بالآخرة، لا يكون قد صنع حقيقةً جديدة، بل يكون قد انكشف له موقعه داخل حقيقة قائمة. فالإيمان هنا ليس فعل إنشاء، وإنما فعل تصديق؛

وليس إضافة شيء إلى الوجود، بل إضافة البصيرة إلى الإنسان. ولذلك كان القرآن يربط الإيمان بالخبر الصادق، لا برغبة النفس في أن يكون الخبر صحيحًا؛ لأن المؤمن لا يملك أن ينتقي من الغيب ما يوافق أمانيه، ثم يسمي اختياره إيمانًا، بل يتلقى عن الله حقيقةً قد تحمل له الوعد كما تحمل الوعيد، وتفتح أمامه باب الرجاء كما تضعه تحت ثقل الحساب.

ولو كانت الآخرة من صنع الحاجة النفسية، لاحتفظ الإنسان منها بما يطمئنه وحده، ولصاغ جنةً بلا حساب، ورحمةً بلا مسؤولية، وخلودًا لا تسبقه محكمة، ومصيرًا يساوي بين الصادق والكاذب، والبار والفاجر، والمظلوم والظالم. غير أن الآخرة القرآنية لا تأتي على صورة رغبة الإنسان، بل تأتي حاكمةً على رغباته؛ تبشره بما يحب، وتحذره مما يخاف، وتلزمه بما قد يشق عليه، وتخبره أن أمانيه ليست مصدر الحقيقة: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

وهذا وحده يكشف أن الإيمان بالآخرة ليس حلمًا صاغته النفس لتعزية ذاتها؛ لأن النفس لو كانت صاحبة الصياغة لجعلت المصير تابعًا لأمانيها، بينما يأتي الوحي ليهدم سلطة الأماني، ويقيم مكانها ميزان العمل والجزاء. فالمؤمن لا يؤمن بالآخرة لأنها تمنحه ما يريد فقط، بل يؤمن بها لأنها خبر الله، حتى حين تضعه أمام ما يكره، وتنتزع منه وهم النجاة المجانية، وتلزمه أن ينظر إلى نفسه كما هي، لا كما يحب أن يتخيلها.

إن التصديق لا يمنح الخبر صدقه؛ بل صدق الخبر هو الذي يجعل التصديق واجبًا. وحين يخبر الله عن اليوم الآخر، لا يكون الإنسان أمام فكرةٍ يجوز له أن يمنحها قيمتها أو يحجبها عنها، وإنما يكون أمام حقيقةٍ تتحدد قيمة موقفه بمقدار اقترابه منها. فليس

السؤال: ماذا أضاف المؤمن إلى الآخرة بإيمانه؟ بل: ماذا أضاف الإيمان إلى المؤمن حين كشف له الآخرة قبل أن يراها؟

لقد أضاف إليه وعي المسافة، ومعرفة الطريق، وإدراك العاقبة. جعله يعيش اللحظة وهو يرى امتدادها، ويختار الفعل وهو يستحضر مآله، ويواجه الخسارة الدنيوية وهو يعلم أنها ليست النتيجة الأخيرة. لكن كل هذه الآثار تقع في المؤمن، لا في حقيقة الآخرة؛ فالآخرة كاملة في وجودها الموعود، سواء استعد لها أم غفل عنها، كما أن الطريق يبقى مؤديًا إلى غايته سواء عرف المسافر خريطته أم سار فيه مغمض العينين.

الإنكار حجابٌ على المنكر

وفي الجهة المقابلة، لا يملك الكافر بإنكاره أكثر من أن يحجب الحقيقة عن نفسه. قد يبني حولها الأسئلة، ويحيطها بالسخرية، ويستبعد إمكانها، ويطلب لها صورةً حسية قبل موعد الحس، غير أن كل ذلك يجري داخل وعيه هو؛ أما الآخرة فتمضي إليه خارج هذا الجدل، لا يصيبها منه شيء، ولا يتوقف موعدها حتى ينتهي.

وقد سجّل القرآن إنكار المنكرين دون أن يعامل إنكارهم بوصفه احتمالًا يهدد الحقيقة؛ لأن القرآن لا يرتب وقوع القيامة على اقتناعهم بها، بل يجعل تكذيبهم جزءًا من قصتهم هم، لا جزءًا من حقيقة اليوم الآخر. يقولون: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، فيأتي الجواب لا مترددًا أمام استبعادهم، ولا باحثًا عن تسوية بين الخبر والرفض، بل حاسمًا في رد الإنسان إلى قدرة خالقه: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

ليست المشكلة، إذن، في إمكان الإعادة، بل في نظر الإنسان الذي جعل ما ألفه حدًّا لما يمكن أن يقع. يرى الموت فيظنه خاتمةً لأن حواسه لا تشهد ما بعده، وينظر إلى التراب فيستبعد أن يعود خلقًا، وينسى أن استبعاده لا يقوم على علمٍ بالعدم، وإنما على جهلٍ بكيفية الإعادة. والجهل بالكيفية ليس علمًا بالاستحالة؛ كما أن عجز المخلوق عن تصور الفعل لا يعني عجز الخالق عن إيجاده.

إن المنكر لا يملك دليلًا يضع به يده على المستقبل ويقول: لن تكون قيامة؛ لأنه لم يشهد الغد، ولم يحط بالوجود، ولم يملك من أمر الخلق شيئًا. كل ما يملكه هو استبعادٌ نفسي ناشئ عن قياس قدرة الله على المألوف من قدرات البشر، أو عن حصر الوجود فيما تسمح الحواس برؤيته. ولذلك لا يكون الإنكار هنا معرفةً مضادة، بل دعوى تتجاوز ما يملكه الإنسان من أدوات العلم.

ومع ذلك، فإن المنكر قد يعيش طويلًا مطمئنًّا إلى إنكاره؛ لا لأن الحقيقة غائبة، بل لأن نتائج موقفه مؤجلة. وهذه طبيعة الابتلاء: أن تُمهل الحقيقة الإنسان، فلا تقهره بالمشاهدة منذ البداية، وأن يبقى بينها وبينه سترٌ يسمح للإيمان أن يكون اختيارًا، وللتكذيب أن يكشف ما في النفس. ولو ظهرت الآخرة الآن ظهورًا حسيًّا كاملًا، لانتهى مجال الإيمان بالغيب، ولم يعد أمام الإنسان إلا إذعان المشاهدة؛ لكن حكمة التكليف اقتضت أن يأتيه الخبر أولًا، وأن تُمنح له مدةٌ يختار فيها، ثم يأتي اليوم الذي تسقط فيه المسافة بين ما أُخبر به وما يراه.

بين إمكان الإنكار واستحالة الإلغاء

لقد منح الله الإنسان قدرةً على أن يكذب بالآخرة، لكنه لم يمنحه قدرةً على إلغائها. وهذه من أدق الفروق بين حرية الموقف وسيادة الحقيقة. فالإنسان حر في أن يتخذ طريقه، لكنه ليس حرًّا في أن يغير نهاية الطريق؛ وحر في أن يصدق التحذير أو يهمله، لكنه لا يملك أن يمحو الخطر الذي حُذِّر منه؛ وحر في أن يعيش مستعدًّا للقاء الله أو غافلًا عنه، لكنه غير مخيَّر في أصل الرجوع إليه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾.

إن الحرية البشرية تعمل داخل الحقيقة، ولا تعمل فوقها. نحن نختار أفعالنا، لكننا لا نختار أن تكون للأفعال نتائج أو ألا تكون. نملك أن نسلك السبيل، ولا نملك أن نفرض عليه نهايةً غير نهايته. نستطيع أن نلقي البذرة أو نتركها، لكننا لا نأمر قانون الزرع أن يخرج من الحنظل عسلًا. وفي النظام الأخروي يبلغ هذا المعنى تمامه: للإنسان أن يختار، ولله أن يحكم؛ للإنسان أن يعمل، وللحقيقة أن تكشف ما صنع؛ للإنسان أن يؤمن أو يكفر، لكن ليس له أن يجعل الإيمان والكفر ينتهيان إلى مصيرٍ واحد لمجرد أنه يرغب في ذلك.

ولهذا يكرر القرآن تقرير البعث مقرونًا بإبطال أوهام الإنسان عن نفسه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾، و﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾. فالآيتان لا تناقشان شعور الإنسان بالحاجة إلى المعنى، بل تكشفان خطأ تصوره عن حقيقة وجوده؛ إنه يحسب أنه متروك، لكن حسبانه لا يجعله متروكًا، ويظن أنه لن يرجع، لكن ظنه لا يغير اتجاه المسير. المشكلة ليست أن حياته ستفقد معناها إن لم

يؤمن، فحسب، بل أنه سيمضي إلى حقيقة لم يستعد لها، وسيكتشف أن إنكاره لم يكن جداراً بينه وبين الآخرة، وإنما كان جداراً بين بصيرته وبينها.

إن الواقع لا يتعدد بعدد تصوراتنا عنه. قد تختلف المواقف من الحقيقة، لكن الحقيقة لا تتشظى لتمنح كل إنسان نهايةً مطابقةً لاعتقاده. لا توجد آخرة للمؤمن وعدمٌ للمنكر، كما لو كان كل واحد منهما يخلق مصيره بفكرته؛ بل هناك آخرة واحدة يأتيها الجميع: يؤتى بالمؤمن الذي عاش لها، وبالمنكر الذي عاش هارباً من خبرها، وبالمتردد الذي ظن أن تعليق موقفه سيعلّق موعدها. يجتمع المختلفون في الاعتقاد أمام حقيقةٍ لم تختلف باختلافهم.

وهنا تتجلى قسوة الوهم الذي يقول إن «لكل إنسان حقيقته»؛ فقد يكون لكل إنسان شعوره، وتجربته، وطريقته في النظر، لكنه لا يملك حقيقةً كونيةً مستقلة يصوغها وفق هواه. يستطيع أن يرى النار دفئًا أو خطراً، لكن اختلاف نظرته لا يغير طبيعتها؛ ويستطيع أن يفهم الموت عبوراً أو فناءً، لكن فهمه لا يقرر ما بعد الموت. وحين تكون الآخرة خبراً إلهياً، فإن حقيقتها لا تقبل أن تتحول إلى تجربة شخصية؛ لأنها ليست حادثةً داخل الشعور، بل موعداً خارج الشعور، سيفرض نفسه على الجميع.

الواقعة لا الاحتمال

من هنا نفهم سر اختيار القرآن لاسم الواقعة. فالاسم لا يترك للذهن مساحةً ليعامل القيامة كإمكان بعيد بين إمكانات؛ بل يقدمها في صورة الحدث الذي اكتسب اسمه من حتمية وقوعه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾. لم يقل: إن أمكن

وقوعها، ولا: لعلها تقع، ولا عرضها في صيغة فرضية تنتظر ما يسندها؛ بل سمّاها بالفعل الذي سيكشف حقيقتها، ثم نفى عن وقوعها كل كذب وتخلف.

وهي الحاقة قبل أن تحق في زمننا؛ لأن تأخر الشيء عن مشاهدتنا لا يخرجه من علم الله ولا من قضائه. وهي الآزفة وإن استبعدها المستبعدون؛ لأن البعيد في حساب العمر الكوني قريبٌ من إنسان تنقص المسافة بينه وبينه مع كل نفس. وهي الساعة وإن جهلنا موعدها؛ لأن جهل الموعد لا يعني غياب الموعد، كما أن المسافر الذي لا يعرف وقت وصوله لا يكون خارج الطريق.

إن القرآن ينقل الإنسان من سؤال: هل ستقع؟ إلى سؤال: ماذا أعددت لها؟ وهذا الانتقال ليس مصادرةً على العقل، وإنما تصحيحٌ لموضعه؛ إذ قد تكفل صدق الخبر وقدرة المخبر بإثبات أصل الوقوع، فلم يعد الجدل العقيم حوله علامةً على التفكير بقدر ما قد يصير وسيلةً لتأخير الاستجابة. وحين تتضح الحقيقة، لا تكون مهمة العقل أن يظل يدور حول إمكانها إلى الأبد، بل أن يبني موقفه على ضوئها.

فمن الناس من يظن أن بقاءه في دائرة السؤال يعفيه من تبعة الجواب، وأن تأجيل اليقين يؤجل الحقيقة ذاتها؛ لكنه، وهو يسأل، يستهلك عمره، ويتقدم في الطريق، ويقترب من اللحظة التي لن يكون فيها السؤال ممكنًا. ليست الآخرة امتحانًا نظريًّا يمكن للإنسان أن يترك ورقته بيضاء ثم يغادر القاعة؛ لأن عدم الإجابة نفسه موقف، والغفلة نفسها اختيار، والزمن الذي لم يُستعمل في الاستعداد لا يعود.

الحقيقة التي سيعرفها الجميع

اليوم يؤمن بعض الناس بالآخرة وينكرها بعضهم، لكن هذا الاختلاف مؤقت؛ لأنه قائم ما دام الغيب غيبًا، وما دامت المعرفة به تأتي عن طريق الخبر. فإذا قامت الساعة، انتهت إمكانية الإنكار، لا لأن المنكرين سيُسلبون عقولهم، بل لأن الحقيقة ستنتقل من مجال الخبر إلى مجال المشاهدة. عندها لا يبقى أحد يقول: لست مقتنعًا؛ فالأمر لم يعد فكرةً تُناقش، بل عالمًا يحيط به، وحشرًا يقف فيه، وحسابًا ينتظر نتيجته.

لكن الاعتراف الذي يأتي بعد المشاهدة ليس هو الإيمان الذي طُلب في زمن الغيب؛ لأن قيمة الإيمان أنه تصديقٌ قبل انكشاف الحجاب، واستجابةٌ للخبر قبل أن يتحول إلى عيان. أما حين يرى الإنسان ما كان ينكره، فلن يكون قد اختار الحقيقة، بل ستكون الحقيقة قد أحاطت به وأسقطت قدرته على الفرار منها. يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، فالآية لا تقول إن الحقيقة وُلدت في ذلك اليوم، بل إن الغطاء هو الذي أُزيل. كان الإنسان غافلًا عن «هذا»، وكان «هذا» ثابتًا وراء غفلته، حتى جاء اليوم الذي انكشف فيه ما كان موجودًا وإن لم يكن مشهودًا.

وهذه الدلالة عظيمة: القيامة ليست إنشاء الحقيقة، بل كشفها؛ وليست انتقالًا من الوهم إلى الوجود، بل انتقال الإنسان من الغفلة إلى المعاينة. وما كان غيبًا بالنسبة إليه لم يكن غائبًا عن علم الله، وما لم تره عيناه لم يكن معدومًا، وما أنكره لسانه لم يكن قابلًا للإلغاء.

وسيؤمن الجميع يومئذٍ بمعنى الاعتراف بالمشاهدة، لكن النجاة لن تكون لمجرد أن الحقيقة صارت مرئية؛ لأن موضع الامتحان كان قبل الرؤية، يوم كان الإنسان قادرًا على أن يصدق خبر الله أو يتبع وهم الحس، وأن يستعد أو يسوّف، وأن يجعل حياته جوابًا عن الحقيقة أو يجعلها فرارًا منها. وحين ينتهي زمن الاختيار، لا تعود المعرفة الجديدة قادرةً على إعادة الزمن القديم.

استقلال الحقيقة وافتقار الإنسان

الآخرة، إذن، غنيةٌ عن إيماننا، ونحن المفتقرون إلى الإيمان بها. لا تحتاج إلى من يثبتها، بل نحن الذين نحتاج إلى ما يثبتنا أمامها. لا تزداد يقينًا بكثرة المصدقين، ولا يصيبها الوهن بكثرة المكذبين؛ لأن اليقين صفة خبر الله، لا نتيجة تصويت البشر. ولو كفر بها أهل الأرض جميعًا لما اقتطعوا من حقيقتها شيئًا، ولو آمنوا بها جميعًا لما أضافوا إلى وقوعها شيئًا؛ وإنما يكون الربح والخسارة فيهم هم، ويقع أثر التصديق والتكذيب في مصائرهم.

وهذا ما ينبغي أن يعيد ترتيب الخطاب عن اليوم الآخر؛ فلا نقدمه للناس مجرد جوابٍ عن حاجتهم إلى العزاء، ولا نبرهن عليه فقط بما يضيفه من معنى إلى الحياة، وإن كان يمنحها غايتها الكبرى؛ لأن الحقيقة لا يكون صدقها تابعًا لمنافعها. قد تكون للآخرة آثار نفسية وأخلاقية وحضارية، وقد تصنع في المؤمن صبرًا وعدلًا واستقامةً وتحررًا من عبودية العاجل، لكن كل ذلك يأتي بعد ثبوتها، لا قبله. نحن لا نقول إنها حق لأنها نافعة، بل نقول إنها نافعة لأنها حق؛ ولا نؤمن بها لأنها تمنحنا المعنى الذي نطلبه، بل نجد معنى وجودنا حين نؤمن بالحقيقة التي أخبر الله بها.

فلو لم يشعر إنسانٌ بأن الآخرة تمنحه معنى، لما تغير من حقيقتها شيء. ولو اختار آخر أن يعيش بلا غاية، لما ألغى الغاية التي خُلق لها. ولو أعلن ثالث أن الحساب لا ينسجم مع تصوره للحرية، لما أسقط عنه الحساب. إن المشاعر لا تحكم الوجود، والرغبات لا تكتب نهايات الكون، والإنسان ليس المرجع الذي تنتظر الحقائق توقيعه حتى تبدأ.

إن الآخرة لا تقف عند باب وعينا مترددةً: هل نسمح لها بأن تكون؟ بل نحن الواقفون عند بابها، وإن توهمنا أن المسافة ما تزال طويلة. وكل يوم يمر لا يؤجلها، وإنما يقرّبنا منها؛ وكل نفس يخرج لا يستهلك زمن الكون، بل يستهلك المسافة الشخصية الباقية بين الإنسان وبين انكشافها.

وعند هذه الحقيقة يتغير السؤال كله. لا يعود السؤال: هل تمنح الآخرة حياتنا معنًى؟ بل: كيف نعيش وقد أخبرنا الله أن وراء هذه الحياة بعثًا وحسابًا وجزاء؟ ولا يعود السؤال: ماذا لو لم يؤمن بها الإنسان؟ بل: ماذا سيفعل إن وصل إلى ما أنكره؟ ولا يعود الإنكار موقفًا محايدًا من فكرة بعيدة، بل يصبح مخاطرةً بالمصير أمام حقيقة لا تعتمد في وقوعها على موافقته.

إن أول الطريق إلى فهم الآخرة هو تحريرها من الإنسان: من حاجته، وخوفه، وتصوره، وتصديقه، وإنكاره؛ ثم إعادتها إلى موضعها الذي وضعها القرآن فيه: خبرًا من الله، ووعدًا لا يُخلف، وقضاءً مفعولًا، ويومًا آتيًا، وحقيقةً لا تنتظر منا أن نمنحها الوجود، بل تنتظرنا نحن عند نهاية الوجود الذي نعرفه.

فالآخرة لا تكون لأننا آمنا، وإنما نؤمن لأنها ستكون، ولا تقع لأننا احتجنا إليها، وإنما نحتاج إلى الاستعداد لأنها واقعة، ولا يثبتها خوف الإنسان من الفناء، وإنما يثبتها خبر الذي خلق الإنسان من العدم، ويعلم أين يمضي بعد الموت.

وهنا تستقر القاعدة التي سيُبنى عليها هذا الكتاب كله:

الحقيقة سابقةٌ على الموقف منها، والآخرة سابقةٌ في علم الله على إيمان المؤمن وإنكار الكافر، فمن آمن لم ينشئها، وإنما أبصرها قبل أن يراها، ومن أنكر لم يُلغها، وإنما سار إليها محجوبًا عنها.

الفصل الثاني
الآخرة خبرُ الله لا حاجةُ الإنسان

إذا كانت الحقيقة سابقةً على موقف الإنسان منها، فإن السؤال التالي يصبح متعلقًا بمصدر معرفتنا بها: من أين عرف الإنسان الآخرة؟ هل استنبطها من خوفه من الفناء، واخترعها ليحمي نفسه من وحشة العدم؟ أم عرفها من خبرٍ جاءه من خارج حدود تجربته، صادرٍ عمّن يعلم الغيب كما يعلم الشهادة، ويرى النهاية كما يرى البداية؟

إن الجواب عن هذا السؤال يحدد طبيعة الإيمان بالآخرة كلها؛ فإذا كانت الآخرة وليدة حاجة نفسية، أمكن تفسيرها بوصفها حلمًا جماعيًّا، أو تعويضًا اخترعه الضعفاء عن عدالةٍ لم يجدوا لها موضعًا في الأرض، أو امتدادًا لرغبة الإنسان في ألا تنتهي حياته عند القبر. أما إذا كانت خبرًا من الله، فإن حاجات الإنسان ومخاوفه ورغباته تصبح مسائل ثانوية لا تمس حقيقة الخبر؛ فقد يحتاج الإنسان إلى الآخرة أو يغفل عن حاجته إليها، وقد يجد في الإيمان بها عزاءً أو يجد فيه تكليفًا ثقيلًا، لكنها تبقى واقعةً لأن مصدر العلم بها هو الله، لا النفس البشرية.

والقرآن لا يقدم اليوم الآخر باعتباره فكرةً استخرجها الإنسان من تأمله في الموت، بل خبرًا جاءه بالوحي؛ إذ لا يملك المخلوق المحصور داخل الزمن أن يفتح بنفسه باب ما بعد الزمن، ولا تستطيع الحواس التي تعمل داخل عالم الشهادة أن تعبر وحدها إلى عالم الغيب، ولا يقدر العقل، مهما اتسع، أن يستقل بمعرفة تفاصيل البعث والحشر والحساب والجنة والنار. قد يدرك العقل أن وجود الإنسان لا يستقيم مع العبث، وأن العدل الناقص في الدنيا يقتضي تمامًا، وأن الذي أنشأ الخلق أول مرة قادرٌ على إعادتهم؛ لكنه

لا يستطيع أن يرسم وحده مشاهد اليوم الآخر، ولا أن يحدد مراحله وموازينه ومآلاته. هنا يأتي الوحي، لا ليلغي العقل، بل ليخبره بما لا سبيل له إلى معرفته استقلالًا.

فالآخرة ليست نهايةً تخيلها الإنسان، وإنما نهايةٌ أخبره بها خالق الإنسان؛ وليست صورةً أسقطها وعيه على المستقبل، وإنما حقيقةٌ كشف الله له عنها بقدر ما يحتاج إلى معرفته واستعداده. وكل فرق بين هذين المصدرين ينعكس على معنى الإيمان: فمن آمن بأن الآخرة ابنة الخوف، جعل النفس أصلًا والوحي تفسيرًا لها؛ ومن آمن بأنها خبر الله، جعل الوحي أصلًا والنفس مخاطبةً به، مطالبةً بأن تعيد ترتيب نفسها على ضوئه.

حدود التجربة وضرورة الخبر

يعيش الإنسان داخل نطاقٍ محدود من الوجود، ويرى منه مقدار ما تسمح به حواسه، ويعرف من الزمن اللحظة التي يقف فيها وما حفظه من ماضٍ قريب، ثم يمد عقله بالاستدلال إلى ما وراء المشاهدة. غير أن هذه الأدوات، على عظمتها، لا تمنحه الإحاطة؛ فهي كافيةٌ للقيام بوظيفته في عالم التكليف، لكنها لا تجعله شاهدًا على كل ما كان، ولا حاضرًا في كل ما سيكون.

والغيب، من هذه الجهة، ليس مجالًا ينافس العقل فيه الوحي، لأن العقل لا يملك مادةً حسيةً مستقلة يحاكم بها تفاصيله. إنه يستطيع أن يبحث في صدق الرسول، وفي دلالة القرآن، وفي إمكان البعث، وفي اتساق الخبر مع قدرة الله وحكمته؛ فإذا ثبت له صدق المصدر، كان قبوله لخبره من تمام العقل، لا خروجًا عليه. فالعقل لا يشترط في كل معرفة أن يكون قد شاهد موضوعها بنفسه؛ إذ تقوم حياة البشر كلها على أخبار لم يشهدوها، ووقائع عرفوها بصدق ناقليها، وعلوم قبلوها ثقةً بمناهجها وأهلها.

لكن خبر الآخرة يعلو على سائر الأخبار من جهة مصدره، فهو ليس شهادة إنسانٍ محدود على حادثة وقعت في مكانٍ بعيد، بل خبر الله الذي لا يخفى عليه شيء، ولا يحجبه مستقبل عن حاضر، ولا غيب عن شهادة. فإذا كان الإنسان يقبل خبر الصادق فيما لم يشهد، فكيف يكون تصديق خبر الله تعطيلًا للعقل؟ إن التعطيل الحقيقي هو أن يثبت العقل صدق المصدر، ثم يرفض خبره لأنه لا يستطيع إدراك كيفيته بالحس؛ كأن وظيفة العقل لم تعد التمييز بين الصدق والكذب، بل صارت اشتراط خضوع الوجود كله لحدود تجربته.

إننا لا نعرف الآخرة لأننا عدنا منها، بل لأن الذي نعود إليه أخبرنا بها؛ ولا نصدق البعث لأن أجسادًا خرجت أمامنا من القبور، بل لأن الذي أنشأها أول مرة قرر أنه يعيدها. وما بين البداية والإعادة ليس مسافةً في قدرة الله، وإنما مسافةٌ في إدراك الإنسان. فهو يرى الخلق الأول مألوفًا لأنه يراه يتكرر، ويستبعد الخلق الآخر لأنه لم يشهده، مع أن القدرة التي تعلّق بها الأول هي نفسها التي تعلّق بها الثاني: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وليس معنى ذلك أن الإعادة أهون على الله من جهة القدرة، فكل شيء عليه هيّن، وإنما يخاطب القرآن قياس الإنسان نفسه: إن كنتم قد أقررتم بالبداية، فكيف تستبعدون الإعادة؟ وإن كان وجودكم الأول قد وقع بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، فبأي برهان تجعلون جمع ما تفرق منكم أعظم من إنشائكم أول مرة؟

الخبر الذي لا يستمد صدقه من حاجتنا

قد يقال إن الإنسان محتاجٌ نفسيًّا إلى الاعتقاد بحياةٍ بعد الموت، وإن هذا الاحتياج يكفي لتفسير نشوء الإيمان بها. غير أن وجود الحاجة لا ينفي وجود الحقيقة؛ فقد يحتاج العطشان إلى الماء، ولا تكون حاجته دليلًا على أن الماء اختراع نفسي، ويحتاج الجائع إلى الطعام، ولا يعني ذلك أن الطعام وهمٌ صنعه الجسد ليخفف ألمه. إن الحاجة قد تكون علامةً على افتقار الإنسان إلى حقيقة خارجية، لا برهانًا على أنه اخترعها.

ثم إن الآخرة القرآنية لا توافق الحاجة النفسية في صورتها السهلة التي قد يتخيلها الإنسان. فالنفس ترغب في البقاء، لكنها لا ترغب بالضرورة في الحساب؛ وتحب الخلود، لكنها لا تحب أن تُكشف سرائرها؛ وتتمنى الجنة، لكنها قد تنفر من الطريق الذي يوصل إليها؛ وتطلب العدالة حين تكون مظلومة، ثم تضيق بها حين تكون هي الظالمة. ولو كان الإنسان قد اخترع الآخرة لتلبية حاجته، لصاغها استمرارًا لرغباته، لا محكمةً عليها، ولجعلها نجاةً بلا مسؤولية، وخلودًا بلا ميزان، ورحمةً لا تواجه أحدًا بعمله.

أما القرآن فيقدم الآخرة على نحوٍ لا يسمح للنفس أن تتخذها مخدرًا؛ فهي توقظها أكثر مما تسكّنها، وتضعها أمام كتابٍ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وأمام ميزانٍ لا تميل كفته للجاه أو القوة أو الادعاء، وأمام يومٍ تُبلى فيه السرائر، وتشهد فيه الجوارح، ويسقط فيه كل ما كان يحمي الإنسان من رؤية نفسه.

إن الآخرة التي اخترعتها النفس كانت ستمنحها ما تريد؛ أما الآخرة التي أخبر بها الله فتسألها عما فعلت. ولهذا لا يمكن اختزال الإيمان بها في تعويض نفسي؛ لأنه يحمل من التكليف والمواجهة وكشف الذات ما لا يصنعه الإنسان عادةً ليواسي نفسه. إنها

عزاء للمظلوم، نعم، لكنها وعيد للظالم؛ رجاء للتائب، لكنها فضيحة للمصرّ، سكينة لمن استقام، لكنها قلقٌ يطارد من يريد أن يفعل ثم لا يُسأل.

فأي حاجة نفسية واحدة تستطيع أن تفسر هذه البنية المركبة؟ إن الإنسان ليس ذاتًا واحدة الرغبة تجاه الآخرة؛ فالمظلوم يحتاج إليها بوصفها يوم الإنصاف، والظالم يتمنى لو لم تكن، والمؤمن يرجوها ويخافها، والغافل يهرب من ذكرها، والمقبل على الله يجد فيها وعد اللقاء. ولو كانت حقيقتها تابعةً للحاجة، لتعددت بتعدد المحتاجين؛ لكنها تأتي واحدةً للجميع، لا تنحاز إلى رغبة أحد، وإنما تحكم بينهم بالحق.

الله يخبر عن النهاية لأنه رب البداية

لا يستمد خبر الآخرة يقينه من قدرة الإنسان على اختبار المستقبل، بل من معرفة المخبر وقدرته. فالذي يخبر عنها هو الذي خلق الزمن، ولا يكون المستقبل غيبًا عليه كما هو غيب علينا؛ وهو الذي بدأ الخلق، فلا تكون الإعادة مسألةً مجهولة الإمكان في حقه؛ وهو الذي أحصى على العباد أفعالهم، فلا يضيع من الحساب شيءٌ بالنسيان؛ وهو الحكم العدل، فلا تأتي الآخرة حادثةً عبثيةً بعد حياة عبثية، بل موعدًا يظهر فيه مقتضى أسمائه وحكمته.

ولهذا يربط القرآن بين البعث والربوبية؛ لأن من أقر بأن الله خالقٌ ثم استبعد أن يعيد خلقه قد آمن ببعض آثار القدرة وأنكر تمامها، وأثبت البداية وفصلها عن غايتها، وجعل الخلق قادرًا على الخروج من العدم ثم عاجزًا عن الرجوع إلى ربه. يقول تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾. فالإعادة ليست احتمالًا معلقًا،

بل وعدٌ تولى الله تأكيده، ثم ختمه بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، وهي عبارةٌ تنقل الخبر من مجرد الإمكان إلى حتمية الفعل.

إن الله لا يخبر الإنسان بما قد يقع إذا توفرت شروطٌ خارجة عن إرادته، بل يخبره بما شاء أن يكون، وما وعد أن يفعله، وما لا رادّ لقضائه فيه. ولذلك نتكرر في أخبار الآخرة ألفاظ الوعد والحق والجمع والميعاد: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

إن الآية لا تكتفي بالإخبار عن الجمع، بل تقيم يقينه على أصل المصدر: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾. وكأنها تعيد السؤال كله إلى موضعه الصحيح، فالقضية ليست: هل يستطيع الإنسان أن يتخيل الحشر؟ بل: هل يمكن أن يتطرق الكذب إلى خبر الله؟ فإذا استحال ذلك، ثبت الخبر، وإن بقيت كيفيات كثيرة وراء حدود إدراكنا.

وهنا يظهر أن الإيمان بالآخرة فرعٌ عن معرفة الله؛ فكلما صح تصور الإنسان لعلم ربه وقدرته وصدقه وحكمته، زال استبعاده للبعث. أما حين يقيس الإعادة على قدرته هو، ويجعل جهله بالكيفية دليلًا على استحالة الفعل، فإنه لا يناقش الآخرة وحدها، بل يكشف خللًا في تصوره عن الخالق.

إن من خلق بلا مثال سابق لا يعجزه أن يعيد، ومن أحاط بكل ذرةٍ لا يضيع عليه ما تفرق، ومن لا ينسى لا يحتاج إلى ذاكرةٍ تسترجع أعمال الناس، ومن كان أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، لا تقف أمام قدرته قبورٌ ولا عظامٌ ولا أزمنةٌ طويلة. فالتراب الذي يستبعد الإنسان أن يُجمع منه هو نفسه خلق الله، والقوانين التي

يظنها مانعةً هي من خلق الله، والموت الذي يراه نهايةً ليس قوةً مستقلةً تنازع الله سلطانه، بل طورٌ من أطوار خلقه، يعقبه ما شاء الله أن يعقبه.

الوحي لا يبرهن الآخرة بالمنفعة وحدها

حين ندافع عن الإيمان بالآخرة بما تمنحه للحياة من عدلٍ ومعنى وطمأنينة، فإننا نعرض بعض حكمتها وآثارها، لكننا لا ينبغي أن نجعل هذه الآثار أصل حقيقتها؛ لأن المنفعة لا تساوي البرهان دائمًا. قد تكون الفكرة نافعةً وهي غير صحيحة، وقد تكون الحقيقة ثقيلةً وهي ثابتة، فلا يصح أن نقيس صدق الأخبار بمقدار ما تمنحنا من راحة.

إن الآخرة تمنح حياة المؤمن غايتها، بلا شك؛ وتحرره من استبداد اللحظة، وتمنع القوة من أن تصبح معيار الحق، وتحفظ تضحيته من العبث، لكن القرآن لا يقول: آمنوا بالآخرة لأنها مفيدة لكم فحسب؛ بل يقول: آمنوا بها لأنها حق. ولو لم يدرك الإنسان جميع منافعها، أو لم يشعر بأثرها في نفسه، لبقي ملزمًا بتصديقها؛ لأن صدقها متقدمٌ على أثرها.

وهذا التحول من حقيقة الخبر إلى منفعة الاعتقاد من أخطر ما يصيب الخطاب الديني؛ لأنه يجعل العقيدة وسيلةً لتحسين الحياة النفسية، ثم يفتح الباب لاستبدالها بأي وسيلة تؤدي وظيفةً مشابهة. فإذا كانت قيمة الآخرة أنها تمنح الإنسان الطمأنينة فقط، فقد يقال إن هناك تصوراتٍ أخرى تمنحه طمأنينةً مماثلة؛ وإذا كانت وظيفتها الوحيدة ضبط الأخلاق، فقد يقال إن القانون أو الضمير الاجتماعي يستطيعان أداء المهمة؛ وإذا كانت مجرد معنى يواجه به الإنسان الموت، فقد يخترع لنفسه معنى آخر.

أما حين تكون الآخرة حقيقةً أخبر الله بها، فإن آثارها لا تقوم مقامها، ولا يستطيع بديلٌ نفسي أو اجتماعي أن يلغيها. قد يجد الإنسان طمأنينته بعيدًا عنها، لكنها ستأتي؛ وقد يضبط سلوكه بقانونٍ وضعي، لكنه سيُحاسب؛ وقد يصنع لحياته معنى ذاتيًّا، لكنه سيقف أمام المعنى الذي خُلق له. ليست المسألة في قدرة الإنسان على الاستغناء النفسي عن الإيمان، بل في عجزه الوجودي عن الاستغناء عن لقاء الله.

قد يقول إنسان: أنا لا أحتاج إلى الاعتقاد بالآخرة كي أكون صالحًا. لكن السؤال الذي يطرحه القرآن أعمق من حاجته الأخلاقية: هل عدم احتياجك المزعوم يلغي البعث؟ قد يكون قادرًا على أداء أفعالٍ حسنة لأسباب اجتماعية أو إنسانية، لكن هذا لا يحسم حقيقة المصير، ولا يجعل اليوم الآخر تابعًا لقدرته على بناء منظومة أخلاقية في الدنيا. الآخرة ليست مكافأةً اخترعتها الأديان لحماية الأخلاق، بل حقيقةٌ سيعرف فيها الإنسان قيمة ما قدّم، وحقيقة من كان يعبد، وعلى أي هدىً أو ضلالٍ كان يسير.

خبرٌ يتجاوزنا ولا يناقضنا

إن كون الآخرة خبرًا من الله لا يعني أن العقل لا يجد في الكون والإنسان ما يوقظه إليها. فالقرآن يستدعي العقل مرارًا للنظر في الخلق الأول، وفي إحياء الأرض بعد موتها، وفي نشأة الإنسان، وفي اتساع القدرة التي أقامت السماوات والأرض؛ لا لأن هذه المشاهد هي الآخرة نفسها، بل لأنها شواهد على إمكانها، ومداخل لتحرير العقل من الاستبعاد.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. إن إحياء الأرض ليس

تفسيرًا لكيفية بعث الأجساد، لكنه مثالٌ مشهود يكسر دعوى الاستحالة؛ فالذي يرى الموت والحياة يتعاقبان في الوجود لا يملك أن يجعل الموت قوةً نهائيةً يستحيل تجاوزها.

ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. والمشكلة التي تكشفها الآيات ليست غياب الدليل وحده، بل نسيان الإنسان لخلقه؛ فهو يحمل في ذاته شاهد البداية، ثم يسأل عن إمكان الإعادة كأنه وجد بنفسه، وكأن العدم لم يسبقه، وكأن القدرة التي أخرجته أول مرة قد انطفأت بعد خلقه.

وهكذا لا يطلب الوحي من العقل أن يصدق التناقض، بل أن يتجاوز المألوف، ولا يدعوه إلى قبول المستحيل، بل إلى عدم جعل عادته معيارًا لقدرة الله. فالفرق كبير بين ما يحيله العقل وما لم تألفه الحواس؛ والبعث لا يحمل تناقضًا عقليًّا، وإنما يحمل خبرًا عن فعلٍ إلهي لم نشهده بعد، وأصل القدرة عليه قائمٌ في الخلق الأول الذي نشهده في أنفسنا.

حين يصبح صدق المصدر أساس المعرفة

كل خبرٍ عن الغيب يثير سؤال المصدر؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يختبر موضوعه بالحس قبل وقوعه. ومن هنا يصبح صدق المخبر هو الجسر المعرفي الذي يعبر به العقل إلى ما وراء المشاهدة. وليس هذا طريقًا غريبًا عن المعرفة البشرية؛ فنحن نعرف أكثر التاريخ بالخبر، ونعرف كثيرًا من بقاع الأرض دون أن نراها، ونثق بنتائج علومٍ لا نعيد تجاربها بأنفسنا، اعتمادًا على صدق المناهج والناقلين.

غير أن خبر الله يختلف من حيث الكمال؛ فالبشر قد يصدقون ويخطئون، ويعلمون شيئًا ويجهلون أشياء، ويرون الحدث من زاويةٍ محدودة، أما الله فلا يخفى عليه ما سيكون، ولا يقع في خبره احتمال الوهم أو النسيان أو العجز. ولذلك يجعل القرآن قضية الآخرة متصلةً بصدق الله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، و﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾، و﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾.

إن كلمة الحق هنا لا تعني أن الوعد جميل أو مرغوب فحسب، بل أنه ثابتٌ مطابق لما سيكون، لا يتخلف ولا يتبدل. والآخرة حق لأن الله أخبر بها، ووعد بها، وأقام عليها من دلائل قدرته وحكمته ما يقطع الاستبعاد؛ لا لأنها فازت بقبول البشر، ولا لأن حاجتهم النفسية صوتت لمصلحتها.

ولهذا فإن أعمق خللٍ في إنكار الآخرة ليس مجرد الخطأ في تصور المستقبل، بل سوء الموقف من خبر الله. فالمنكر لا يقول ضمنًا إن البعث غير ممكن فقط، بل يجعل تقديره المحدود أصدق عنده من خبر الخالق، ويمنح حسه سلطةً على ما لم يُخلق الحس للإحاطة به، ثم يطالب الغيب بأن يتحول إلى شهادة قبل الموعد، وإلا رفض الاعتراف به.

ولو خضع الغيب لهذا الشرط لما بقي غيبًا، ولانتهى معنى الابتلاء. فالإيمان لا يكون بعد أن تحيط العين بالمشهد، بل قبل ذلك، حين يأتي الخبر مؤيدًا بصدق الرسول ودلالة الوحي وشواهد القدرة، ثم يُترك للإنسان أن يختار: أيثق بخبر الله أم يجعل حدود حسه حدودًا للوجود؟

الآخرة ليست جواباً صنعناه، بل خبرًا تلقيناه

لقد انشغل الإنسان منذ القدم بالموت، وسأل عما وراءه، وخاف الفناء، وتمنى البقاء، لكن وجود هذه الأسئلة لا يعني أنه صنع جواب الوحي. فالسؤال البشري شيء، والخبر الإلهي شيء آخر. الجوع لا يصنع الطعام، وإن دفع إلى طلبه؛ والعطش لا يخلق الماء، وإن دل على الحاجة إليه؛ والقلق من المصير لا ينشئ الآخرة، وإن جعل النفس أشد التفاتًا إلى خبرها.

بل قد تكون في فطرة الإنسان وتطلعه إلى البقاء إشاراتٌ إلى أنه لم يُخلق للفناء المحض، لكن هذه الإشارات لا تستقل بتفاصيل الحقيقة. إنها توقظ السؤال، والوحي يجيب؛ تكشف الافتقار، والخبر يدل على ما يملؤه؛ تدفع الإنسان إلى الباب، لكن الله وحده يخبره بما وراءه.

ومن هنا ينبغي ألا نخلط بين قابلية الإنسان للإيمان بالآخرة وبين كون الإنسان مصدرًا لحقيقتها. لقد خُلق قابلًا لتلقي الخبر، ومهيَّأً لسؤال المصير، لكنه لم يُخلق مالكًا للغيب. إن في نفسه حنينًا إلى البقاء، وفي عقله توقًا إلى اكتمال العدالة، وفي ضميره شعورًا بأن الأفعال أكبر من نتائجها العاجلة؛ غير أن هذه كلها نوافذ تستقبل نور الخبر، لا شموسًا تنتجه.

فالآخرة ليست الجواب الذي اخترعناه لأننا لم نحتمل السؤال، وإنما الجواب الذي جاءنا من الجهة التي ينتهي إليها طريقنا؛ خبرٌ من الله عن اللقاء به، وإنذارٌ قبل انقضاء المهلة، ورحمةٌ بالإنسان كيلا يفاجئه المصير الذي كان يمكن أن يعرفه ويستعد له.

ما الذي يغيّره الإيمان إذن؟

إذا كانت الآخرة ستقع سواء آمنا أم لم نؤمن، فقد يسأل سائل: ما قيمة الإيمان بها؟ والجواب أن الإيمان لا يغيّر حقيقة الآخرة، لكنه يغيّر الإنسان الذي سيلقاها. لا يصنع اليوم الآخر، لكنه يصنع الاستعداد له؛ لا ينشئ الحساب، لكنه يدفع إلى مراجعة العمل قبل الحساب؛ لا يخلق الجنة، لكنه يقود إلى طريقها؛ ولا يوجد النار، لكنه يوقظ من أسبابها.

إن الطبيب حين يخبر المريض بحقيقة ما في جسده لا يجعل المرض موجودًا بخبره، والمريض حين يصدقه لا يخلق الخطر بتصديقه، لكن المعرفة تغيّر موقفه؛ تدفعه إلى العلاج، وتمنعه من الاسترسال في أسباب الهلاك. أما من يرفض الخبر لأنه ثقيل، فلا يكون قد شفى نفسه، بل يكون قد عطّل فرصته في النجاة.

والإيمان بالآخرة من هذه الجهة وعيٌ مبكر بالحقيقة؛ أن ترى بالخبر ما سيراه الناس بالعيان، وأن تعيش قبل انكشاف الغطاء على أساس ما سيظهر بعده. ولذلك وصف القرآن المتقين بأنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾؛ لأن امتيازهم ليس أنهم خلقوا الغيب بإيمانهم، بل أنهم صدقوا به وهو محجوب، فجعلوا حياتهم شهادةً على ثقتهم بخبر الله.

أما المنكر فسيرى الحقيقة نفسها، لكن بعد أن تنتهي منفعة الرؤية؛ وسيفهم الخبر حين لا يعود الفهم قادرًا على إعادة العمل. إن الفارق بينهما ليس في اليوم الذي سيأتيهما، فكلاهما يأتيه اليوم نفسه، بل في الحالة التي يأتيهما عليها: هذا عرفه قبل وصوله فاستعد، وذاك استبعده حتى أحاط به.

الخبر الذي يتحول إلى مصير

إن أخبار البشر قد تبقى معلوماتٍ بعيدةً عن حياة سامعيها، أما خبر الآخرة فلا يبقى خارج الإنسان؛ لأنه خبرٌ عنه هو، وعن نهايته الشخصية، وعن اليوم الذي لن يكون فيه مراقبًا للحادثة بل جزءًا منها. لا يستطيع أن يقرأه كما يقرأ قصة قومٍ مضوا، ولا أن يقف منه موقف المتفرج؛ فحين يخبر القرآن عن البعث، فهو يخبر القارئ عن بعثه، وحين يذكر الحساب، فهو يذكره بوقوفه، وحين يعرض الجنة والنار، فهو يكشف له نهايتين لا يخرج مصيره عنهما.

وهذا ما يمنح خبر الآخرة ثقله؛ إنه ليس معرفةً تضاف إلى الذهن، بل حقيقةٌ تتحرك نحو صاحبها. كلما قرأ الإنسان عنها كان يقرأ فصلًا من مستقبله، وكلما سمع نداءها كان يسمع صوت اليوم الذي سيقف فيه وحيدًا بما قدّم. قد يفصل بينه وبينها زمنٌ لا يعلمه، لكن جهل المسافة لا يبدل الاتجاه، وطول الأمل لا يطيل الأجل.

إن خبر الله لا يقول للإنسان: هناك آخرة فحسب، بل يقول له: إنك صائرٌ إليها. وهذه الإضافة تنقل العقيدة من التجريد إلى المصير؛ فالآخرة ليست جزءًا من خريطة الكون بعيدًا عنه، وإنما هي النهاية التي تتجه إليها أيامه جميعًا. نومه ويقظته، ربحه وخسارته، طاعته ومعصيته، كلمته وصمته؛ كل ذلك ينقص المسافة، ويكتب في الوقت نفسه المادة التي سيلقاها هناك.

ولهذا لا يكون الإعراض عن خبر الآخرة مجرد رفضٍ لمعلومة، بل رفضًا لمعرفة الإنسان بنفسه وبطريقه. إنه يشبه مسافرًا أُخبر بنهاية الطريق، فأغلق الخريطة لأنه لا

يحب الموقع الأخير، ثم واصل السير في الاتجاه نفسه. لن يغير إغلاق الخريطة تضاريس الطريق، لكنه سيحرمه القدرة على اتخاذ المسار الصحيح.

حقيقةٌ لا تحتاج إلينا، ورحمةٌ أُخبرنا بها

قد لا تحتاج الآخرة إلى إيماننا كي تقع، لكن إخبارنا بها رحمةٌ بنا؛ فالله لم يترك الإنسان يسير إلى مصيره بلا بيان، ولم يجعل الموت بابًا مغلقًا ثم يفاجئه بما وراءه دون إنذار. أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وكرر ذكر اليوم الآخر، وفصّل مشاهد الحساب، لا لأن الحقيقة ناقصةٌ حتى يكتمل وجودها بالبلاغ، بل لأن الإنسان ناقص العلم، محتاجٌ إلى من يدله.

وهنا يجتمع استقلال الحقيقة عن الإنسان مع رحمة الله بالإنسان: الآخرة واقعةٌ لا محالة، لكن الله لم يجعل وقوعها مباغتةً بلا خبر؛ والحساب حق، لكنه سبق بالبيان؛ والجنة والنار موجودتان بوعد الله، لكنه فتح قبل الوصول إليهما طريق الاختيار والتوبة والعمل. فالخبر ليس صناعةً للحقيقة، بل إنقاذٌ للإنسان قبل أن يلقاها.

إن من الرحمة أن يُقال لك إن الطريق ينتهي إلى حساب، ومن الرحمة أن تُكشف لك الموازين قبل أن توزن، ومن الرحمة أن تعرف ما يُرضي الله قبل أن تقف بين يديه، ومن الرحمة أن تُمنح زمنًا تستطيع فيه أن تغير الكتاب قبل أن يُغلق. أما تحويل الآخرة إلى رمزٍ أو معنى نفسي، فإنه لا يبدد الخوف فحسب، بل يحرم الإنسان رحمة الإنذار؛ لأنه يقنعه بأن الحقيقة ليست خارج نفسه، وأنه يستطيع تعديلها بتعديل تفسيره لها.

لكن النار لا تنطفئ بإعادة تسميتها، والحساب لا يزول بتحويله إلى استعارة، والبعث لا يصبح مجازًا لأن الحس لم يشهده بعد. إن الأسماء التي يختارها الإنسان قد تغيّر شعوره، لكنها لا تغيّر ما سمّاه الله حقًّا.

وعند هذا الموضع تستقر قاعدة الفصل الثاني:

الآخرة ليست حاجةً بشرية تحولت إلى عقيدة، بل خبرٌ إلهي كشف للإنسان حقيقة حاجته إلى الاستعداد، وليست جوابًا اخترعه الخائف من الموت، بل وعدًا ووعيدًا أخبر به خالق الموت والحياة.

قد يحتاج الإنسان إلى معناها، وقد يهرب من ثقلها، وقد يجد في الإيمان بها عزاءً، وقد يرى في الحساب قيدًا على شهوته، لكن شيئًا من ذلك لا يدخل في أصل وجودها. إنها لا تستمد صدقها من أثرها في النفس، بل يستمد أثرها قوته من صدقها. وما كان خبرًا من الله لا ينتظر من الإنسان أن يخلقه بتصديقه، وإنما ينتظر منه أن ينقذ نفسه بالإيمان قبل أن يصير الخبر مشاهدةً، والوعد حضورًا، والغيب واقعًا لا حجاب دونه.

الفصل الثالث

الواقعة: الاسم الذي يُغلق باب الاحتمال

ليست أسماء القيامة في القرآن أوصافًا بلاغيةً تُزيّن الحديث عن المستقبل، ولا مترادفاتٍ تتكرر لتمنح الخطاب تنوعًا لغويًّا؛ إن كل اسم منها يكشف وجهًا من وجوه ذلك اليوم، وينقل إلى الإنسان حقيقةً مخصوصةً عنه، ويهدم وهمًا من الأوهام التي يتخذها ستارًا بينه وبين مصيره. غير أن اسم الواقعة يظل من أكثر هذه الأسماء حسمًا؛ لأنه لا يصف مشهدًا من مشاهد القيامة فحسب، بل يقرر أصل وقوعها، وينقلها من فضاء التوقع والاحتمال إلى مقام الحدث الذي ثبت في خبر الله قبل أن يدخل زمن الإنسان.

يقول تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾.

يفتتح القرآن المشهد بأداة «إذا»، لا بأداة «إن» التي قد يدخلها الاحتمال في بعض الاستعمالات؛ فكأن اللغة نفسها أُغلقت منافذ التردد فيها، ولم يبق أمام العقل إلا أن يتلقى خبر الحدث الذي سيقع، ثم ينظر في موقعه منه. إنها ليست حادثةً يُبحث أولًا في إمكانها، بل واقعةٌ يُبحث في أثرها، وليست مستقبلًا مفتوحًا على الوقوع وعدمه، بل موعدًا مؤجلًا إلى زمنٍ يعلمه الله.

وقد سمّاها القرآن الواقعة قبل أن تقع في نطاق الحس البشري؛ لأن حقيقتها لا تبدأ لحظة مشاهدتنا لها، بل هي ثابتةٌ في علم الله وقضائه ووعده. فالاسم لا ينتظر الحدث حتى يصح، كما تنتظر أوصاف البشر تحقق الوقائع، وإنما يأتي من علمٍ لا يحجبه الزمن،

ولا يقف فيه المستقبل بعيدًا مجهولًا كما يقف في علم الإنسان. ما ننتظره نحن معلومٌ عند الله، وما نستقبله غدًا حاضرٌ في علمه، وما نتردد في تصديقه قد فرغ الوحي من تقريره.

إن الإنسان يقول عن الشيء: «قد يقع»، لأنه لا يعلم الغيب، ولا يملك شروط المستقبل، ولا يدري ما يعرض للأسباب من تغيير. أما حين يخبر الله، فإن الخبر لا يصدر عن ترجيح، ولا يتكئ على احتمال، ولا يصف نتيجةً قد تمنعها قوةٌ أخرى؛ لأن الأمر كله له، والزمن خلقه، والمستقبل لا يخرج عن علمه ومشيئته. ومن هنا تكون القيامة واقعةً لا لأنها قريبةٌ في إحساسنا، بل لأن وقوعها متحققٌ بوعد الله، لا تتطرق إليه إمكانية الإخلاف.

الاسم الذي يسبق المشاهدة

في التجربة البشرية تأتي الأسماء غالبًا بعد الأشياء؛ يرى الإنسان الحادثة، ثم يمنحها اسمًا يميزها. أما في الوحي، فقد تأتي تسمية المستقبل قبل ظهوره؛ لأن الذي يسميه يعلم حقيقته قبل أن نراه. وهنا يحمل الاسم قوة الخبر: إنه لا يخبرنا فقط بأن يومًا سيأتي، بل يضعه في وعينا بصورته اليقينية، حتى نعيش تجاهه كما يعيش من عرف أن الطريق ينتهي إلى موعدٍ لا يتبدل.

إن تسمية القيامة بالواقعة تجعل الإنكار موقفًا واقعًا خارج بنية الحقيقة. فالمنكر يستطيع أن يقول: لن تقع، لكن قوله يأتي في مواجهة اسمٍ قرآني يحمل نقيض دعواه في ذاته. يستطيع أن يستبعدها، لكن استبعاده لا يتسلل إلى حقيقة الحدث؛ لأن الواقع لا يقبل أن يُمحى بمجرد أن عقلًا محدودًا لم يستوعبه.

وحين يقول الله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، فإن النفي يتجاوز مجرد التأكيد اللغوي إلى تثبيت طبيعة اليوم كله؛ فلا نفس تستطيع تكذيب وقوعه حين يقع، ولا جهة تملك دفعه، ولا قوة تستطيع أن تجعل خبره كاذبًا، ولا حادثةٌ تعرض فتمنع الموعد من الوصول. إنها واقعةٌ تحمل صدقها معها، وحين تحضر تسقط كل الأقوال التي أنكرتها، لا بالجدال، بل بالمشاهدة.

كان المنكر في الدنيا يستطيع أن يصوغ الاعتراض، ويطالب بالدليل، ويسخر من البعث، ويستبعد جمع العظام؛ لأنه يقف في زمن الإمهال، حيث الحقيقة محجوبةٌ والخيار قائم. أما إذا وقعت الواقعة، فإن سلطان الحدث نفسه ينهي زمن الاعتراض. لا يحتاج النهار بعد طلوع الشمس إلى مناظرةٍ مع من أنكر الضوء؛ فالحضور الكامل يطوي زمن الاستدلال، والمشاهدة تسقط قدرة النفس على مواصلة التكذيب.

وهنا تظهر المفارقة: إن الذين كانوا يطلبون أن يروا حتى يؤمنوا سيرون، ولكن الرؤية ستأتي في الوقت الذي لا يعود فيه الإيمان بالغيب ممكنًا، ولا يكون الاعتراف قادرًا على رد الماضي. لقد طُلب منهم أن يصدقوا الخبر حين كان التصديق اختيارًا، فإذا صار الخبر واقعًا لم يبق لهم من الاختيار إلا مواجهة ما اختاروه قبل وقوعه.

ليست الواقعة وليدة اقترابها

قد يظن الإنسان أن الحقيقة تزداد تحققًا كلما اقترب موعدها، كأن الآخرة اليوم أقل واقعًا منها غدًا، ثم تكتمل حقيقتها حين تقوم. غير أن هذا التصور يخلط بين تحقق الشيء في علم الله ووعده وبين دخوله عالم التجربة البشرية. فالآخرة من حيث الخبر الإلهي حقٌّ لا يتدرج في صدقه، ولا ينتقل من الوهم إلى الحقيقة، ولا يكتسب يقينه

قليلًا قليلًا، وإنما الذي يتدرج هو اقتراب الإنسان منها، والذي يتغير هو موقعها من حسه.

إن الجبل القائم وراء الضباب لا يبدأ وجوده حين ينقشع الضباب، وإنما تبدأ رؤيتنا له. والموعد الثابت لا يصبح موعدًا ساعة الوصول، وإنما ينتقل من الانتظار إلى الحضور. وكذلك القيامة: لا تبدأ حقيقتها حين ينفخ في الصور، بل يبدأ عندئذ انكشافها للخلق؛ أما ثبوتها فقد قام بخبر الله، وصدق الوعد، ونفاذ القضاء.

ولهذا يتحدث القرآن عن اليوم الآخر أحيانًا بصيغ تُشعر بالقرب والتحقق: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. جاء التعبير بالفعل الماضي مع أن ما حذرت منه الآية لم يكن قد ظهر للناس؛ لأن ما قضاه الله وأخبر به محقق الوقوع حتى كأنه قد وقع، فلا يبقى بينه وبين الوجود إلا حلول موعده. إن الزمن الذي يفصلنا عن الشيء لا يفتح احتمال تخلفه إذا كان وعد الله قد سبق به.

فالآخرة ليست حقيقةً في طور التكوين، ولا مشروعًا كونيًّا ينتظر اكتمال أسبابه، بل يومًا أعدَّه الله، ووقت له وقتًا، وأجرى الدنيا نحوه. كل ولادةٍ فيها بداية طريق إليه، وكل موتٍ انتقالٌ إلى مرحلةٍ من انتظاره، وكل يومٍ ينقضي يطوي من عمر العالم صفحةً تقربه من موعده.

إننا لا ننتظر أن تقرر الآخرة هل تقع، بل ننتظر الوقت الذي قرر الله أن تقع فيه. وهذا فرقٌ بين احتمالٍ مجهول المصير وموعدٍ مجهول التوقيت. قد نجهل الساعة، لكننا لا نجهل أنها آتية، وقد تخفى علينا المسافة، لكن الاتجاه معلوم، وقد يعجز الحساب

البشري عن تحديد النهاية، لكن العجز عن تعيين الزمن لا يمنح الإنسان حق الشك في أصل الحدث.

جهل الموعد لا يعني غياب الموعد

أخفى الله وقت الساعة، ولم يخف حقيقتها؛ فأغلق باب المعرفة بالتوقيت، وفتح أبواب الاستعداد للوقوع. وهذا الإخفاء ليس نقصًا في البيان، بل جزءٌ من الابتلاء؛ لأن الإنسان لو عرف موعد نهايته معرفةً تفصيليةً قد يؤجل استعداده حتى يقاربها، ويتعامل مع التوبة بوصفها ترتيبًا زمنيًّا لا تحولًا صادقًا، ويستهلك ما قبلها في الغفلة. فجاء إخفاء الساعة ليجعل الحياة كلها موضع استعداد، وكل لحظة قابلةً لأن تكون آخر ما يملكه المرء من زمن العمل.

غير أن الإنسان يحوّل أحيانًا جهل التوقيت إلى ذريعةٍ للشك في الوقوع؛ وكأنه يقول: ما دمت لا أعرف متى، فلا يقين عندي بأنها ستكون. وهذا خلطٌ لا يستقيم في العقل؛ فنحن نجهل أوقات كثير من الأحداث التي نوقن بأصولها. كل إنسان يعلم أنه سيموت، مع أنه لا يعرف اليوم ولا المكان ولا الكيفية؛ ولا يجعل جهلُه بساعة موته أصلَ الموت احتمالًا بعيدًا. فلماذا تتحول المسافة المجهولة إلى دليلٍ على نفي القيامة، مع أن الذي أخبر بها هو الذي أحاط بالموت والحياة؟

إن الله حين يقول: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾، يجمع بين حتمية الإتيان وخفاء الموعد؛ فلا الخفاء ينقص من الإتيان، ولا اليقين يقتضي كشف الزمن. بل إن كلمة آتية تجعل الساعة في حركةٍ نحو الإنسان، وإن بدا له أنه هو

الثابت وهي البعيدة. وفي الحقيقة، ليست الساعة وحدها التي تأتي؛ الإنسان أيضًا يمضي إليها، وكل عمرٍ طريقٌ ذو اتجاه واحد، لا يستطيع صاحبه أن يرجع منه إلى يومٍ مضى.

قد يطول عمر العالم بعد موت إنسان، لكنه بالنسبة إلى ذلك الإنسان قد خرج من زمن العمل واقترب من انكشاف ما وُعد. فالمسافة العامة بين الدنيا والقيامة لا ينبغي أن تخدع الفرد عن مسافته الخاصة؛ لأن موته يغلق كتاب التكليف، ويقطع إمكان الزيادة والمراجعة، ويضعه عند أول منازل الآخرة. ومن هنا كان استبعاد الساعة لطول الأمل أحد أكثر أوهام الزمن خطرًا: يظن الإنسان أن بُعد النهاية الكونية يعني بُعد نهايته الشخصية، مع أن أجله قد يكون أقرب إليه من الفكرة التي يؤجلها إلى الغد.

الواقعة ليست نتيجة اعتقاد جماعي

هناك حقائق اجتماعية تستمد قوتها من اتفاق البشر عليها؛ فالعملات والقوانين والأعراف تفقد جانبًا من سلطانها إذا انفض الناس عنها. وقد يتغير نظامٌ كامل حين يتغير الاعتقاد الجمعي الذي يحمله. لكن الآخرة ليست من هذا النوع؛ لأنها لم تنشأ بعقدٍ بشري، ولا تقوم على إجماع ثقافي، ولا يحفظها تكرار المؤمنين لخبرها.

ولو لم يبق على الأرض مؤمنٌ واحد بالبعث، لما سقط من موعد القيامة شيء؛ ولو اتفقت الحضارات كلها على إنكارها، لما كان اتفاقها قوةً تقف في وجه أمر الله. فالجموع لا تمنح الحقيقة الكونية وجودها، وكثرة المنكرين لا تحول الجهل إلى علم، ولا التصويت على الغيب يغير ما قضى الله أن يكون.

إن الإنسان قد يطمئن حين يرى كثيرين يشاركونه الإنكار، ويظن أن انتشار الموقف يمنحه قوةً معرفية؛ لكن الكثرة وصفٌ لأصحاب الفكرة، لا برهانٌ على صدقها. قد

يجتمع الناس على غفلة، كما يجتمعون على معرفة، وقد تتوارث أجيالٌ وهمًا، كما تتوارث حقًّا. والآخرة لا توزن بعدد من صدق أو كذب، بل بصدق من أخبر بها.

ولهذا يرد القرآن الإنسان مرارًا من ضغط الجماعة إلى مسؤوليته الفردية؛ فالذي سيقف يوم القيامة ليس «الرأي العام»، ولا الثقافة التي صنعت استبعاده، ولا العصر الذي لقنه المادية، بل النفس التي اختارت أن تجعل أصوات الناس أعلى من خبر الله. ستتفرق الجماعة التي كان يستمد منها الطمأنينة، ويتبرأ المتبوع من التابع، ويأتي كل إنسان فردًا كما خُلق أول مرة. عندها يكتشف أن الحقيقة لم تكن تُحسم بالكثرة، وأن الجموع التي جعلت الإنكار مألوفًا لم تستطع أن تجعل الواقعة أقل وقوعًا.

إن الآخرة لا تتأثر بمنحنيات الإيمان في التاريخ؛ لا تقترب إذا كثر المؤمنون، ولا تبتعد إذا قلوا، ولا تتشكل بحسب الثقافات. إنما تتغير أحوال الناس تجاهها: جيلٌ يتذكر، وجيلٌ يغفل؛ قومٌ يستعدون، وقومٌ يسخرون؛ أما الموعد فواحد، والواقعة واحدة، ورب الناس واحد.

الاسم الذي يهدم سلطان اللغة المراوغة

يلجأ الإنسان أحيانًا إلى تغيير الأسماء كي يخفف وطأة الحقائق؛ فيسمي الموت غيابًا، ويسمي المعصية حريةً، ويسمي الغفلة انشغالًا بالحياة، ويسمي إنكار الآخرة موقفًا مفتوحًا من الأسئلة. وليس كل تغييرٍ في العبارة تغييرًا في الحقيقة، لكنه قد ينجح في تخدير الوعي عنها؛ فاللغة تستطيع أن تستر الشيء عن النفس زمنًا، وإن لم تستطع أن تستره عن الوجود.

أما القرآن فيسمّي القيامة بأسماء تقطع الطريق على المراوغة: إنها الواقعة، فلا تستطيع اللغة تحويلها إلى مجرد احتمال. وهي الحاقة، فلا يمكن اختزالها في أسطورة. وهي القارعة، لأنها ستقرع العالم والقلوب معًا، ولن تبقى فكرةً هادئةً في هامش الوعي. وهي الصاخة، لأن حضورها يبلغ من القوة ما يسقط كل الأصوات التي كانت تزاحم خبرها. وهي الطامة الكبرى، لأنها تعلو على كل كارثةٍ عرفها الإنسان، وتطوي النظام الذي كان يظنه نهائيًّا.

إن هذه الأسماء لا تخيف الإنسان باللفظ، بل تحرره من التسمية المخففة التي يصنعها كي يواصل الغفلة. فالحدث الذي سيغيّر بنية العالم لا يليق أن يُعامل كفكرةٍ هامشية، واليوم الذي ستقوم فيه الخلائق لرب العالمين لا يمكن أن يبقى موضوعًا ثقافيًّا قابلًا للمساومة.

وحين يسمي القرآن القيامة «الواقعة»، فإنه يرد اللغة إلى وظيفتها الأصلية: كشف الحقيقة، لا حجبها، ويقول للإنسان إن بإمكانه أن يختار كلماتٍ أقل حدة، لكن الكلمات لن تغيّر نهاية الطريق. يستطيع أن يستبدل بالحساب تعبير «المصير المجهول»، وبالبعث «استمرار الأثر»، وبالجنة والنار «الحالات الروحية»، غير أن هذه التحويرات لا تصل إلى الحقيقة، بل تدور داخل الوعي الذي يخاف مواجهتها.

فالواقعة ستقع باسمها وحقيقتها، لا بالاسم الذي يمنحه لها المنكر.

حين تقع الحقيقة على العالم كله

لا تقع القيامة داخل جزءٍ صغير من الوجود، ولا تصيب جماعةً دون أخرى، بل تطوي العالم الذي عرفه الإنسان، وتعيد بناء المشهد كله على نظامٍ آخر. إنها ليست

حادثةً تاريخيةً يمكن لمن كان بعيدًا عنها أن ينجو من أثرها، ولا كارثةً جغرافيةً تحدها الحدود؛ بل نهاية التاريخ الذي تقع فيه الحدود، وانهيار النظام الذي تقوم عليه المسافات.

تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسماوات، وتُبعثر القبور، وتنكشف السرائر، ويُحشر الأولون والآخرون. لا يبقى موضعٌ للاختباء؛ لأن المكان نفسه قد تبدل، ولا مهلةً للفرار؛ لأن الزمن الذي كان يحمل الفرص قد انتهى، ولا قوةً للحماية؛ لأن القوى كلها عادت إلى حجمها الحقيقي أمام ملك الله.

إنها واقعةٌ على الكون، وواقعةٌ على الإنسان، وواقعةٌ على الأوهام التي عاش بها. تقع على المتكبر فتسقط صورته التي صنعها لنفسه، وعلى الظالم فتنتزع منه السلطة التي حجب بها حقوق الناس، وعلى المرائي فتكشف الفاصل بين ظاهره وباطنه، وعلى الغافل فترد إليه ما حاول نسيانه. ليست الواقعة مجرد انتقال أجساد من القبور إلى المحشر، بل سقوطٌ شامل لكل ما كان يزيف الوعي ويحمي الإنسان من مواجهة حقيقته.

ولهذا أعقب القرآن قوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ بقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾؛ فهي لا تحضر فقط، بل تعيد ترتيب القيم والمقامات. تخفض من رفعته الدنيا بغير حق، وترفع من خفضته موازين القوة مع صدقه؛ تسقط الألقاب التي لم تسندها حقيقة، وتظهر قيمة الأعمال التي لم يرها الناس. إنها ليست واقعةً في الزمن فحسب، بل واقعةٌ على أكاذيب الزمن أيضًا.

كم من إنسانٍ بدا في الدنيا كبيرًا لأنه أحاط نفسه بأسباب الهيبة، فإذا جاءت الواقعة ظهر صغيرًا أمام عمله؛ وكم من مؤمنٍ عاش مجهولًا، ولم يلتفت إليه التاريخ، فإذا

انكشف الميزان كان عند الله عظيمًا. فالقيامة تصحح أوضاعًا لم تستطع الدنيا تصحيحها، لكنها تفعل ذلك لأنها حقيقةٌ قضائية كبرى، لا لأنها مجرد رمزٍ لانتصار القيم.

وقوعها لا ينتظر اكتمال تصورنا لها

ربما يعترض العقل لأنه لا يستطيع تصور انقلاب النظام الكوني، أو بعث الأجساد بعد فنائها، أو اجتماع الخلق في صعيدٍ واحد. لكنه ينسى أن القدرة على التصور ليست شرطًا لإمكان الوجود؛ فالإنسان قد يعجز عن تصور أشياء ثم يراها، وقد يظن أن حدود الخيال هي حدود الواقع، مع أن الواقع أوسع من الصور التي يستطيع عقله تركيبها.

إن الطفل لا يستطيع تصور كثير من أحوال العالم الذي سيبلغه، لكن عجزه لا يمنع بلوغه؛ والإنسان القديم لم يكن قادرًا على تصور صورٍ كثيرة من العلم والحركة والاتصال التي صارت بعد ذلك جزءًا من الحياة. فإذا كان الواقع المخلوق قد تجاوز خيال البشر مرارًا، فكيف يجعلون عجز خيالهم ميزانًا لما تستطيعه قدرة الخالق؟

ثم إن تفاصيل الكيفية ليست مطلوبةً حتى يصح أصل التصديق؛ فالإنسان يعلم أنه خُلق ولا يعرف أسرار خلقه كلها، ويوقن بأن روحه تفارقه عند الموت ولا يحيط بحقيقة الروح، ويستعمل عقله دون أن يدرك إدراكًا كاملًا كيفية نشوء كل خاطرٍ فيه. ليست المعرفة الصحيحة مرادفةً للإحاطة، وإلا بطلت أكثر معارف الإنسان.

فالذي يطلب أن يحيط بكيفية القيامة قبل أن يؤمن بها لا يطلب برهانًا فحسب، بل يطلب أن يتحول المحدود إلى محيط، وأن يخرج الغيب من طبيعته قبل موعده. والوحي لا

يمنحه ذلك، لكنه يمنحه ما يكفيه: خبر الله، وشواهد القدرة، ودلائل الخلق الأول، واتساق البعث مع الحكمة والعدل. أما الكيفية الكاملة فتبقى حيث ينبغي لها أن تبقى، حتى يحين وقت المشاهدة.

الواقعة والذين يسألون: متى؟

يتكرر في القرآن سؤال المنكرين عن موعد القيامة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾، وقد يبدو السؤال طلبًا للمعرفة، لكنه كثيرًا ما يخفي وراءه الاستبعاد أو الاستعجال أو تحويل القضية من أصل الوقوع إلى تفصيل التوقيت. كأن الإنسان يهرب من سؤال الاستعداد إلى سؤال الموعد، فإذا لم يُعطَ التاريخ الذي يريده، اتخذ خفاءه ذريعةً للغفلة.

غير أن القرآن لا يسلّم له هذا الهروب: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ۝ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ۝ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾. فوظيفة الرسالة ليست أن تحول الغيب إلى جدول زمني، بل أن تنذر الإنسان قبل مجيء اليوم. العلم بالتوقيت عند الله، أما ما يحتاج إليه المكلف فقد بلغه: أنها آتية، وأنه موقوفٌ فيها، وأن عمله سيعرض عليه.

إن السؤال الصحيح ليس: متى تقع الواقعة؟ بل: كيف ستجدني إذا وقعت؟ فمعرفة الموعد دون استعداد لا تنجي، وجهله مع صدق الإيمان لا يضر؛ بل قد يكون خفاؤه باعثًا على دوام اليقظة. وكل إنسان يملك من عمره موعدًا مصغرًا لا يعرفه: ساعة موته؛ فإذا كان لا يضمن المساء حين يدخل الصباح، فما الذي سيفعله بتاريخ بعيد للقيامة لو أُعطيه؟

إن النفس لا تحتاج دائمًا إلى مزيدٍ من المعلومات، بل إلى صدقٍ في التعامل مع ما علمت. وقد علمت أن الموت آتٍ، وأن البعث حق، وأن الساعة لا ريب فيها؛ لكن الغفلة تحاول أن تحول نقص التفصيل إلى نقصٍ في اليقين، كي تعفي الإنسان من تبعة ما يعرف.

من الخبر إلى المشاهدة

ستبقى الواقعة خبرًا بالنسبة إلى الأحياء حتى تقع، لكن انتقالها إلى المشاهدة لن يضيف إلى صدقها شيئًا؛ بل سيضيف إلى علم الناس بها ما كانوا يرفضونه أو يغفلون عنه. آنذاك سيعلم المنكر أن الحقيقة لم تكن تنتظر حكمه، وأن السنوات التي قضاها في التكذيب لم تكن تؤخرها، بل كانت تستنزف فرصته في النجاة.

إن أهوال القيامة ليست عقوبةً على ضعف الخيال، بل نتيجة موقفٍ اختاره الإنسان من خبرٍ بلغه. فالناس لا يُطالبون بتصور التفاصيل التي لم يخبروا بها، وإنما بتصديق الله فيما أخبر، والاستجابة لما كلّف. من فعل ذلك رأى يوم القيامة ما كان يؤمن به، فوافق العيان الخبر؛ ومن كذب رأى ما كان ينكره، فانكسر الإنكار بعد أن انتهى زمن نفع التصديق.

وهنا يصبح معنى قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ شديد الدلالة؛ فاسم الإشارة يحول البعيد الذي استُبعد في الدنيا إلى حاضرٍ محيط: هذا. لم يعد حديثًا في كتاب، ولا موعظةً على لسان رسول، ولا صورةً تخطر في القلب، بل صار واقعًا يُشار إليه، ونارًا تُرى، وحسابًا يقع. وكل المسافة بين «التكذيب» و«هذا» هي عمر الإنسان؛

الفرصة التي كان يستطيع فيها أن يجعل الخبر أساسًا لعمله، حتى إذا انقضت لم يبق إلا الحقيقة نفسها.

إن الآخرة لا تحتاج يومئذٍ إلى برهان؛ لأن وقوعها سيكون برهانها، لكن الإنسان سيحتاج إلى عملٍ سبقها، ولن يجده إلا فيما قدّم. ستسقط الأسئلة النظرية، وتبقى الإجابات التي كتبها بسلوكه؛ فكل يومٍ عاشه كان جوابًا، وكل اختيارٍ اتخذه كان موقفًا، وإن ظن أنه لم يحسم رأيه بعد.

الحقيقة التي تأتي ولا نأتي بها

إن من أعمق ما يحرر الإيمان من المركزية البشرية أن نفهم أن الواقعة تأتي إلينا ولا نأتي بها إلى الوجود. لا تصنعها تصوراتنا، ولا تستدعيها مخاوفنا، ولا يستعجلها شوق المؤمنين، ولا يؤخرها إعراض المكذبين. لها موعدها في علم الله، ولها نظامها الذي لا تملكه الإرادة البشرية.

نحن لا نشارك في قرار وقوعها، وإنما نشارك في تشكيل حالنا عند وقوعها. وهذه هي المساحة التي منحها الله للإنسان: لا أن يقرر إن كان اليوم الآخر سيكون، بل أن يقرر بأي وجهٍ يلقاه؛ ولا أن يختار وجود الحساب، بل أن يختار العمل الذي يدخل به إليه؛ ولا أن يصوغ الحقيقة وفق رغبته، بل أن يصوغ نفسه وفق الحقيقة.

فالمؤمن لا يقف أمام الآخرة بوصفه حارسًا لعقيدةٍ تخشى الزوال إذا قلّ المدافعون عنها؛ إنما يقف بوصفه عبدًا بلغه خبر ربه، فعرف أن الحقيقة أقوى من خصومها، وأن وعد الله لا يحتاج إلى قلقه عليه. إنه يدعو الناس إليها رحمةً بهم، لا خوفًا عليها؛

ويحذرهم منها شفقةً على مصيرهم، لا محاولةً لإنقاذ حقيقتها من الإنكار. فالآخرة محفوظةٌ بوعد الله، وإنما الإنسان هو المعرَّض للضياع إذا أعرض عنها.

وهذا يمنح الخطاب عن القيامة ثباته وهدوءه؛ فلا يتحول إلى صراخٍ يستجدي التصديق، ولا إلى جدلٍ يوحي بأن الحقيقة معلقةٌ على نتيجة المناظرة. يُقام البرهان، وتُبيَّن الدلالة، ويُكشف الوهم، ثم تبقى للإنسان مسؤوليته؛ فإن آمن فلنفسه، وإن كفر فعليها، وأمر الله ماضٍ في الحالتين.

حين تسقط المسافة بين الاسم والمسمّى

اليوم نقول: الواقعة، ونقرأ وصفها، ونحاول أن تقترب القلوب من معناها؛ لكن سيأتي يومٌ يسقط فيه الفاصل بين الاسم والمسمّى، ويصير اللفظ الذي مر على الأسماع عالمًا تقف فيه الأجساد. حينئذٍ يفهم الإنسان أن القرآن لم يكن يبالغ، وأن اللغة لم تكن ترسم خيالًا، وأن الوعيد لم يكن وسيلةً تربويةً مؤقتة؛ بل كان الخبر يصف هذه اللحظة نفسها قبل أن تصل.

وسيكتشف أن تكرار ذكر الساعة لم يكن تكرارًا، بل رحمةً متكررة؛ وأن كل آيةٍ قرأها عنها كانت بابًا مفتوحًا للاستعداد؛ وأن كل مرةٍ أعرض فيها لم تكن الآخرة تبتعد، بل كان هو يقترب منها دون زاد. وسيعرف أن كلمة «الواقعة» كانت أصدق من كل الكلمات التي اخترعها لينفيها، وأن ما سماه احتمالًا كان الموعد الوحيد الذي لم يكن في حقيقته محتملًا.

فلا إيمـان المـؤمن يمنح الواقعـة وقوعهـا، ولا إنكار الكافر يسـلبها اسمها. هـذا يرى الحقيقـة قبـل حضـورها بنـور الـوحي، وذاك يراهـا بعـد حضـورها بقهـر المشـاهدة؛ وبين الرؤيتين تقع قيمة العمر كله.

وعند هذا المعنى ينتهي الفصل إلى قاعدته الكبرى:

القيامة ليست واقعةً لأنها ستحدث في وقتٍ ما فحسب، بل لأنها ثبتت في خبر الله ثبوتًا لا يدخله الاحتمال؛ وما بقي ليس أن تقرر هل تقع، وإنما أن يحين الوقت الذي تنكشف فيه للخلق.

إنها الواقعة حين يؤمن بها المؤمن، والواقعة حين ينكرها الكافر، والواقعة حين يغفل عنها العالم، والواقعة حين يختلط على الناس معنى وجودهم. لا تتغير بتغير أسمائهم لها، ولا تستمد يقينها من استعدادهم، ولا تنتظر نهاية جدلهم؛ بل تمضي نحو موعدها، ويمضي الجميع نحوها، حتى إذا وقعت لم تصنع حقيقةً جديدة، وإنما كشفت الحقيقة التي كانت قائمةً وراء حجاب الزمن.

الفصل الرابع

الإيمان لا يصنع الآخرة

ليس الإيمان قوةً خالقةً تنشئ موضوعها في الخارج، ولا رغبةً باطنيةً إذا اشتدت تحولت إلى واقع، ولا تعويذةً نفسيةً تمنح الأشياء وجودها؛ إنما هو تصديقٌ بالحق بعد قيام دليله، وإذعانٌ لخبر الله، واستقامةٌ في الموقف من حقيقةٍ قائمة لا تعتمد في وجودها على الإنسان. فالآخرة لم تصبح حقًّا يوم آمن بها أول مؤمن، ولم تدخل الوجود حين نطق بها أول رسول، ولم تتأكد حقيقتها كلما ازداد عدد المصدقين؛ بل كان الرسل يخبرون عن واقعٍ آتٍ، وكان المؤمنون يصدقون خبرًا سبقهم، وكانت الحقيقة ثابتةً قبل أن يتخذ الإنسان منها أي موقف.

إن القول بأن الإيمان لا يصنع الآخرة يعيد ترتيب العلاقة بين المؤمن وما يؤمن به؛ فالمؤمن ليس منتجًا للحقيقة، بل متلقيًا لها، وليس مالكًا لها، بل عبدٌ اهتدى إليها، وليس مصدر يقينها، بل المستنير بنورها. وكلما نسي هذا الفارق، تحول الإيمان من عبوديةٍ لله إلى تمركزٍ خفي حول الإنسان، كأن الحقائق الدينية لا تكون إلا بمقدار حضورها في شعوره، أو كأن الغيب يحتاج إلى حرارة وجدانه كي يثبت.

والقرآن لا يجعل الإنسان مركزًا يدور الوجود حول تصديقه، بل يجعله مخلوقًا داخل نظامٍ من الحقائق يسبقه ويحيط به ويتجاوز عمره. كان الله سبحانه قبل أن يُخلق الإنسان، ولم يزل كاملًا بأسمائه وصفاته، لا يتوقف وجوده على معرفة أحدٍ من خلقه. وكان قضاؤه نافذًا قبل أن تُخلق العقول التي ستؤمن به أو تجحده، وكانت الآخرة موعدًا مقررًا قبل أن يبدأ تاريخ البشر فوق الأرض.

فالحقيقة الإلهية لا تبدأ من الإنسان، وإن بدأ وعي الإنسان منها، والآخرة لا تبدأ من الإيمان، وإن بدأت حياة المؤمن الحقيقية حين استيقنها.

الفرق بين وجود الحقيقة وحضورها في القلب

توجد الحقيقة في ذاتها، ثم قد تحضر في وعي الإنسان أو تغيب عنه، وقد تكون قائمةً في الخارج، بينما يعيش المرء عمرًا كاملًا لا يلتفت إليها. وهذا الغياب النفسي لا يصيب الحقيقة، بل يصيب صاحبها؛ فهي لا تفقد شيئًا من وجودها حين تُنسى، وإنما يفقد الغافل إمكان الاهتداء بها.

فالشمس في السماء لا يخلقها فتح العين، لكن العين المفتوحة تستقبل ضوءها، والطريق لا ينشأ حين يهتدي إليه المسافر، لكن معرفته به تحميه من التيه، والدواء لا يكتسب خصائصه حين يثق به المريض، لكن ثقته الصحيحة تدفعه إلى تناوله. كذلك الآخرة لا يصنعها الإيمان، وإنما يفتح الإيمان للإنسان نافذةً عليها، فيراها بخبر الله قبل أن تصبح مرئيةً بالحس.

وهنا ينبغي التمييز بين حقيقة الآخرة وحقيقة أثرها في الإنسان؛ فالأولى ثابتةٌ بوعد الله، أما الثانية فتختلف باختلاف القلوب. قد تكون الآخرة في قلب مؤمنٍ حاضرةً حتى تكاد تؤثر في كل كلمةٍ يقولها، وكل قرارٍ يتخذه، وكل حقٍّ يؤديه، وقد تكون في قلب آخر عقيدةً هامشيةً لا تكاد تتجاوز اللسان، وقد ينكرها ثالثٌ تمامًا. لكن هذه الدرجات لا تصف الآخرة، بل تصف وعي الناس بها.

فالاختلاف ليس في حقيقة اليوم الآخر، وإنما في مقدار انكشافه للقلوب، وليس في قوة وقوعه، وإنما في قوة أثره في السلوك. الآخرة واحدة، لكن الناس لا يعيشون

تجاهها على حالٍ واحدة: منهم من يسير إليها وهو يراها ببصيرته، ومنهم من يسير إليها وقد غطاها النسيان، ومنهم من يسير وهو يصر على أنها ليست في نهاية الطريق.

إن حضور الآخرة في القلب يمنحها أثرًا في الحياة، لكنه لا يمنحها وجودًا في الكون، وهذا الفارق الدقيق يحفظ العقيدة من أن تتحول إلى تجربةٍ شعورية خاصة، كأن لكل مؤمنٍ آخرته التي يصنعها إيمانه، ولكل منكرٍ عدمه الذي يصنعه إنكاره. ليست الحقيقة موزعةً بين الذوات، بل الذوات كلها محمولةٌ إلى حقيقة واحدة.

المؤمن لا يخلق الغيب بتصديقه

يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، ولم يقل: الذين يصنعون الغيب بإيمانهم؛ فحرف الباء يكشف جهة التعلق: هناك غيبٌ سابقٌ في حقيقته، ثم يأتي الإيمان متعلقًا به. فالإيمان فعل الإنسان، أما الغيب فخبر الله وخلقه وقضاؤه. الأول موقفٌ من الحقيقة، والثاني حقيقةٌ لا يقوم وجودها بهذا الموقف.

إن المؤمن حين يصدق بالبعث لا يضيف إلى قدرة الله قدرة، وحين يصدق بالحساب لا ينشئ ميزانه، وحين يرجو الجنة لا يبنيها برجائه، وحين يخاف النار لا يوقدها بخوفه. هذه الحقائق قائمةٌ بما شاء الله لها من وجود، وإنما يصنع الإيمان في المؤمن قلبًا يعرفها، وعقلًا يستحضرها، وإرادةً تستعد لها.

وهذا يطهّر الإيمان من الوهم الذي يجعل الاعتقاد وسيلةً لإنتاج الواقع، كأن الإنسان إذا آمن بشيءٍ على نحوٍ كافٍ صار الشيء موجودًا. فليست قوة التصديق دليلًا على صدق موضوعه؛ قد يوقن الإنسان بالباطل، ويستميت في الدفاع عنه، ولا يمنحه يقينه حقيقةً يفتقدها. وقد يتردد في الحق، ولا يسلبه تردده ثبوته. الصدق ليس مقدار

الشعور، بل مطابقة الخبر للواقع، والإيمان الصحيح ليس ما اشتد حضوره في النفس فحسب، بل ما تعلق بما أخبر الله به على الوجه الذي أخبر به.

لذلك لا تكون العقيدة القرآنية إسقاطًا لأماني النفس على الغيب، بل خضوعًا من النفس للغيب الذي كشفه الوحي. لا يقول المؤمن: سأصنع لنفسي آخرةً تناسب حاجتي؛ بل يقول: سأعيد بناء حياتي على أساس الآخرة التي أخبرني بها ربي. ولا يختار منها ما يريحه ثم يترك ما يثقله، لأن الحقيقة لا تُؤخذ بالتجزئة وفق الهوى؛ فمن آمن بالجنة لأنها توافق رجاءه، ثم فرّغ الحساب من مضمونه لأنه يزعجه، لم يتلقَّ خبر الله، وإنما أعاد تشكيله على صورة نفسه.

إن الإيمان الصادق لا يمنح النفس سيادةً على الغيب، بل ينزع منها هذه السيادة؛ يعلمها أن ما عند الله حق، سواء وافق أمانيها أم خالفها، وأن دورها ليس تعديل الخبر، بل تصحيح موقعها منه.

ليس صدق الآخرة قائمًا على صدق المؤمن

قد يضعف المؤمن، وقد يعصي، وقد يعيش في بعض لحظاته دون مستوى يقينه، لكن ضعفه لا يمس حقيقة ما آمن به. فالآخرة لا تسقط بسقوط بعض المؤمنين، ولا تتحول إلى وهم بسبب تناقضٍ في سلوك من ينتسبون إليها. إن سوء تمثل الإنسان للحقيقة حجةٌ عليه، لا حجةٌ عليها.

وهذا من الفروق التي تختلط في كثير من الجدل؛ فقد يرى أحدهم مؤمنًا يتحدث عن الحساب ثم يظلم، أو يذكر الجنة ثم يلهث وراء الدنيا، فيتصور أن تناقض المؤمن يكشف ضعف العقيدة نفسها. لكنه في الحقيقة يكشف أن معرفة الإنسان بالحق لا

تعني دائمًا تمام استجابته له. المريض قد يعرف ضرر السم ثم يتناوله، ولا يجعل فعله السم نافعًا، والمسافر قد يعرف الطريق ثم ينحرف عنه، ولا يغير انحرافه وجهة الطريق.

إن الآخرة ليست نظريةً تستمد صلاحيتها من كمال أتباعها؛ إنها خبر الله، والمؤمنون أنفسهم محكومون بها. فإذا خالفوا مقتضاها صاروا أول من تقوم عليهم الحجة؛ لأن من علم ليس كمن جهل، ومن ذكر الحساب ثم تصرف كأنه لن يُحاسب لم ينفِ الحساب، بل أثبت حاجته إلى أن يتحول إيمانه من معلومةٍ محفوظة إلى يقينٍ حاكم.

ولهذا لا يضع القرآن المؤمن خارج دائرة التحذير لمجرد إيمانه الاسمي، بل يخاطبه، ويذكّره، ويحذره من الغفلة، ويطالبه بأن يحقق معنى التصديق في العمل. فالإيمان ليس شهادة ملكيةٍ على الجنة، ولا حصانةً من الحساب، بل معرفةٌ بالحقيقة تقتضي الخضوع لها. وكلما كان الخبر أوضح في القلب كانت مسؤولية صاحبه أعظم.

إن صدق الآخرة قائمٌ على صدق الله، لا على استقامة كل من آمن بها؛ ولو كان الحق يتضرر بأخطاء المنتسبين إليه، لما بقيت في الأرض حقيقةٌ سالمة. لكن الحق يبقى حقًّا، ويُوزن الناس به، ولا يُوزن هو بهم.

الإيمان اعترافٌ لا تفويضٌ للوجود

حين يقول المؤمن: آمنت باليوم الآخر، فإنه لا يصدر أمرًا للكون بأن يقيم القيامة، بل يعترف بأن أمر الله نافذٌ فيه وفي الكون؛ ولا يقرر مستقبل الوجود، بل يقر بالمستقبل الذي قرره الله. الإيمان في جوهره خروجٌ من وهم التحكم إلى مقام التسليم الواعي؛ أن يعرف الإنسان أنه لا يملك نهاية القصة، وإن كان يملك اختيار دوره فيها.

وقد يميل الوعي الحديث إلى تصور الاعتقاد بوصفه اختيارًا شخصيًّا حرًّا يشبه تفضيل نمطٍ فكري على آخر، فيقال: هذا يؤمن بوجود الآخرة، وذاك لا يؤمن بها، ثم يُعامل الموقفان كأن كل واحد منهما صحيحٌ داخل تجربة صاحبه. لكن الآخرة ليست ذوقًا حتى تكون صحيحةً لمن يحبها وباطلةً لمن يرفضها، ولا رمزًا ثقافيًّا حتى يقتصر أثرها على المجتمع الذي يتبناها. إنها خبرٌ عن العالم والإنسان، والخبر إما أن يطابق الواقع وإما ألا يطابقه، ولا يستطيع التعدد النفسي أن يحوّل النقيضين إلى حقيقتين في الخارج.

لا يمكن أن يكون الإنسان مبعوثًا وغير مبعوث في الوقت نفسه بحسب اعتقاده، ولا أن يكون هناك حسابٌ للمؤمن وعدمٌ للمنكر، ولا أن توجد الجنة والنار داخل وعي من صدق بهما ثم تزولا خارج وعي من أنكرهما. إن البعث قضيةٌ وجودية عامة: إذا وقع، وقع على الجميع؛ وإذا كان حقًّا، كان حقًّا في مواجهة كل موقف.

فالإيمان اعترافٌ بهذه العمومية؛ أن يخرج الإنسان من ضيق تجربته الخاصة إلى الحقيقة التي تشمل الخلق جميعًا. والمنكر، حتى حين يزعم أنه اختار ألا يؤمن، لم يختر المصير الذي يريده، بل اختار موقفًا من مصير لا يملكه.

لا يمنحها رجاء المؤمن وجودها

إن المؤمن يرجو الجنة، وقد يمتلئ قلبه شوقًا إليها حتى تصير أكثر حضورًا في نفسه من أشياء يلمسها بيده، لكن رجاءه لا يخلقها. ولو خفت رجاؤه في ساعة ضعف، لما نقص من نعيمها شيء؛ ولو عجز خياله عن تصورها، لما ضاقت عما أعده الله لعباده. فالجنة أكبر من قدرة المؤمن على تخيلها، كما أنها مستقلةٌ عن شدة رغبته فيها.

وهذه الاستقلالية نفسها تجعل الرجاء صادقًا، لأن المؤمن لا يرجو وهمًا يصنعه، بل يرجو دارًا أخبر الله بها، ويعمل لنعيمٍ قائمٍ بوعده. إن الأمل الذي يصنع موضوعه يظل مهددًا بالانهيار حين تضعف النفس، أما الرجاء المتعلق بحقيقةٍ خارجها فيستطيع أن ينهض بها؛ لأنه لا يستمد قوته من مزاجها وحده، بل من صدق الوعد: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

ولذلك لا يقول المؤمن: ستكون الجنة لأنني أرجوها، بل يقول: أرجو الجنة لأنها حق، وأثق بها لأن الله وعد، وأسعى إليها لأن الطريق إليها قد بُيّن. فالرجاء ليس منشئًا للموعود، وإنما هو استجابة القلب للموعود.

وكذلك الخوف من النار لا يمنحها حقيقتها؛ فالمرء قد ينساها أو يستبعدها أو يخفف ذكرها، لكن النار لا تبرد حين يبرد خوفه منها. الخوف الصحيح إدراكٌ للخطر، لا إنتاجٌ له؛ وغيابه لا يدل على غياب المخوف، فقد يكون النائم أكثر الناس أمنًا في شعوره وهو أقربهم إلى الخطر.

إن المشاعر لا تقيس دائمًا حجم الحقائق؛ فقد يرتعب الإنسان من وهمٍ لا وجود له، ويطمئن إلى خطرٍ يحيط به. لذلك لم يجعل الله صدق الآخرة تابعًا لما نشعر به تجاهها، بل جعل الشعور الصحيح تابعًا لمعرفتنا بصدقها. فإذا علم القلب قامت فيه الخشية والرجاء، وإذا غفل ضعفا، بينما تبقى الجنة جنةً والنار نارًا.

اليقين يغيّر الرؤية لا الحقيقة

ما الذي يفعله اليقين إذن؟ إنه لا يغيّر الآخرة، بل يغيّر طريقة رؤية الدنيا. حين يستقر اليوم الآخر في قلب المؤمن، لا تكتسب الآخرة وجودًا جديدًا، وإنما تفقد الدنيا

ادعاءها بأنها كل الوجود. يرى المال وسيلةً لا نهاية، والقوة امتحانًا لا ضمانة، والألم مرحلةً لا حكمًا أخيرًا، والموت عبورًا لا فناءً، والعمل بذرةً ستظهر ثمرتها وإن تأخرت.

إن اليقين يعيد ترتيب النسب داخل الوعي: ما كان كبيرًا في عين الغافل يصغر، وما كان بعيدًا يقترب، وما كان خسارةً محضةً يظهر له وجهٌ آخر في ميزان الأبد. لكنه لا يصنع هذه الأبعاد من العدم؛ إنها آثارٌ واقعية للحقيقة الأخروية، أدركها المؤمن قبل غيره.

فالشهيد لا يخلق بإيمانه حياةً بعد الموت، بل يقدم نفسه لأنه صدق بالحياة التي أخبر الله بها؛ والصابر لا يخترع أجرًا كي يحتمل، بل يحتمل لأنه يعلم أن الأجر لا يضيع؛ والعادل لا يصنع محكمةً أخرويةً لتطمئن نفسه، بل يقاوم هواه لأنه يعلم أنه سيقف أمام المحكمة التي أقامها الله.

ومن هنا تكون الأعمال ثمرة الإيمان، لا مصدر صدق الآخرة. يستطيع المرء أن يستدل بأثر اليقين في النفوس على قوته، لكنه لا يجعل صلاح المؤمنين هو البرهان الوحيد على وجود اليوم الآخر؛ فالخبر ثابتٌ وإن قصّروا في تمثله، والواقعة آتيةٌ وإن لم يبنوا حياتهم عليها.

الإيمان لا يحوّل الغيب إلى ملكية خاصة

حين يؤمن قومٌ بالآخرة، قد يتسلل إليهم وهمٌ يجعلها شأنًا خاصًّا بهم: نحن المؤمنون بها، فهي حقيقتنا التي تميزنا عن غيرنا. ولكن الآخرة لا تخص المؤمنين من جهة الوقوع، وإن تميزوا بتصديقها والاستعداد لها؛ فهي موعد البشرية كلها، ومصير كل نفس، واليوم الذي يجمع الله فيه من آمن ومن كفر، ومن ذكر ومن غفل.

إن المؤمنين لا يملكون حقيقة الآخرة، بل يحملون خبرها، ولا يحتكرونها، بل يشهدون بها على الناس. ومهمتهم ليست أن يحولوها إلى علامة هوية مغلقة، وإنما أن يبلغوا أن الجميع صائرون إليها. فالمنكر ليس خارج نطاقها لأنه لم يدخل في جماعة المؤمنين، بل هو واقع تحت حكمها وإن رفض اسمها.

ولهذا كان خطاب القرآن عالميًّا في الإنذار: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾. لم يقل: يا أيها المؤمنون وحدهم؛ لأن زلزلة الساعة ليست تجربةً عقديةً لمن صدق بها، بل حدثٌ يعم الناس. الإيمان يحدد كيفية اللقاء، لا أصل الاشتراك فيه.

والفارق شديد الأهمية؛ فالقول إن الآخرة «حقيقة المؤمن» قد يوهم أن غير المؤمن يعيش خارجها، كما يعيش الإنسان خارج معتقدٍ لا يتبناه. أما القرآن فيعلن أن غير المؤمن لا يعيش خارج الآخرة، بل يعيش غير واعٍ بموقعه منها. إنه ليس متحررًا من المصير، بل محرومٌ من معرفته؛ وليس قد اختار عالمًا بلا حساب، بل اختار أن يدخل الحساب بلا استعداد.

لا تصبح الحقيقة ذاتيةً لأنها غيبية

يظن بعض الناس أن ما دام الغيب غير قابلٍ للمشاهدة الآن، فلا بد أن يكون أمرًا ذاتيًّا متعلقًا بالإيمان الشخصي؛ فكأن الموضوعية لا تكون إلا للمحسوس، وكل ما وراء الحس يتحول إلى تجربةٍ داخلية. لكن غياب الشيء عن المشاهدة لا ينقله من الخارج إلى الداخل؛ فالوقائع المستقبلية غير مشهودةٍ الآن، ومع ذلك ليست مشاعر نفسية، والأحداث البعيدة التي لم نرها لا تصبح خيالًا لمجرد غيابها عنا.

الغيب وصفٌ لعلاقة إدراكنا بالشيء، لا حكمٌ بعدم وجود الشيء. إنه غائبٌ عنا، لا غائبٌ عن الوجود؛ مجهولٌ لنا من جهة الحس، لا مجهولٌ لله؛ محجوبٌ إلى حين، لا متوقفٌ على إيماننا كي يتكون.

والآخرة غيبيةٌ اليوم، موضوعيةٌ في حقيقتها، وستصبح مشهودةً غدًا دون أن يتغير أصل وجودها. الذي سيتغير هو أداة المعرفة: نعرفها الآن بالخبر الصادق، ونعرفها يومئذٍ بالمشاهدة القاهرة. ومن اشترط المشاهدة وحدها طريقًا للموضوعية جعل زمن الإنسان معيارًا للحقيقة؛ فما لم يدخل لحظته الحالية نفاه، ولو كان قادمًا لا محالة.

إن الفجر غيبٌ عمن يقف في ظلمة الليل، لكنه ليس شعورًا ذاتيًّا، والموعد القادم غير مشهود، لكنه ليس اختراعًا نفسيًّا، والموت غيبٌ من حيث وقته وكيفيته، لكنه أشد الحقائق التصاقًا بالإنسان. وكذلك القيامة: يحجبها المستقبل، ولا ينفيها.

الإيمان لا يزيد في ملك الله

لا ينتفع الله بإيمان المؤمنين، ولا يتضرر بكفر الكافرين؛ فهو الغني عن العالمين، وملكه لا تزيده طاعة ولا تنقصه معصية. وإذا كان الله غنيًّا عن إيمانهم، فإن وعده بالآخرة أولى أن يكون مستقلًّا عن مواقفهم؛ فهو لم يجعلها جائزةً يمنحها الوجود إذا صدق الناس، ولا عقوبةً يلغيها إذا اتفقوا على الرفض.

يقول تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾، ويقول: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. فالكفر لا يهدد سلطان الله، وإنما يعود على صاحبه؛ والإيمان لا يضيف إلى ملك الله، وإنما ينقذ المؤمن. إن الله لا يطلب من الإنسان التصديق ليستكمل به حقيقةً ناقصة، بل يأمره به رحمةً وعدلًا، حتى يتخذ موقفًا صحيحًا من وجوده ومصيره.

ومن هنا تظهر العبودية في أن يعلم الإنسان أن نفع إيمانه راجعٌ إليه: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾. فالآخرة لن تفقد شيئًا إذا كفر، لكن هو الذي يفقد القدرة على الاستعداد؛ والجنة لا تحتاج إلى رجائه، لكن هو المحتاج إلى رحمة الله؛ والنار لا تستمد اشتعالها من إنكاره، لكن إنكاره قد يقوده إليها.

إن العقيدة لا تحرس ملك الله، بل تحرس الإنسان من أن يعيش ضد الحقيقة.

المؤمن شاهدٌ لا خالق

إذا استقرت هذه القاعدة، عرف المؤمن مهمته: أن يكون شاهدًا على الحقيقة، لا من يدّعي إنشاءها أو امتلاكها. يشهد للآخرة في قوله وعمله، ويجعل سلوكه دليلًا على أنه أخذ خبر الله مأخذ الجد، ويدعو الناس لا لأن الواقعة تحتاج إلى أصواتٍ تدافع عنها، بل لأن الناس يحتاجون إلى من يوقظهم قبلها.

والشاهد الصادق لا يغيّر مضمون الشهادة لتصبح مقبولة، ولا يحذف منها ما يثقل على السامع، ولا يحول الحقيقة إلى رمزٍ حتى يرضى عنها العصر؛ لأن أمانته ليست لذوق المتلقين، بل للخبر الذي يحمله. يمكنه أن يحسن البيان، وأن يقيم البرهان، وأن يخاطب العقول بالحكمة، لكن لا يملك أن ينقل الآخرة من كونها دارًا حقيقيةً إلى حالةٍ نفسية، أو من حسابٍ واقع إلى استعارةٍ أخلاقية، بحجة تقريبها إلى من يستبعدها.

إن التقريب الذي يغيّر الحقيقة ليس بيانًا لها، بل استبدالٌ بها. وما فائدة أن يقبل الإنسان فكرةً اسمها الآخرة بعد أن أُفرغت من البعث والحساب والجنة والنار؟ لقد قُبل الاسم ورُفض المسمّى، وبقي المنكر على إنكاره وإن استعمل لغةً دينية.

أما المؤمن الشاهد فيقول: هي حق لأن الله أخبر بها، نفهم من حكمتها ما نفهم، وتخفى علينا من كيفيتها أشياء، لكن خفاء التفصيل لا يجيز لنا إلغاء الأصل. ثم يجتهد أن يجعل حياته متسقةً مع شهادته، حتى لا تتحول الآخرة على لسانه إلى خبرٍ ينقضه سلوكه كل يوم.

ما يصنعه الإيمان حقًّا

الإيمان لا يصنع الآخرة، لكنه يصنع الإنسان المستعد لها، وهذه ليست نتيجةً صغيرة، بل هي وظيفة العمر كله. إنه يصنع عينًا ترى ما وراء العاجل، وقلبًا لا يستبد به الحاضر، وضميرًا يعلم أن الخلوة ليست غيابًا عن علم الله، وإرادةً تستطيع أن ترفض اللذة القريبة من أجل النجاة البعيدة، ولسانًا يزن كلمته لأنه يعلم أنها مكتوبة.

يصنع في الإنسان وحدةً بين السر والعلن؛ لأن الحساب لا يقف عند ظاهر الأفعال، ويحرره من عبودية رأي الناس؛ لأن المحكمة الأخيرة ليست بأيديهم، ويمنحه شجاعة الوقوف مع الحق؛ لأن خسارة الدنيا لا تعني خسارة المصير. ويجعله أرحم بالخلق وأشد خوفًا من ظلمهم؛ لأنه يعلم أن الحقوق لا تموت بموت أصحابها، وأن ما عجزت محاكم الأرض عن بلوغه سيظهر أمام الحكم العدل.

هذه كلها صناعة الإيمان، لكنها تقع في مساحة التكليف، لا في حقيقة اليوم الآخر. فالآخرة آتيةٌ سواء تحققت هذه الثمار في الناس أم لم تتحقق، لكن المؤمن الذي لم يصنع فيه إيمانه استعدادًا يحتاج إلى مراجعة صدق حضور العقيدة في قلبه.

فليس المقصود أن يقول الإنسان: أنا أؤمن بالآخرة، ثم تبقى حياته محكومةً كليًّا بمنطق الدنيا؛ يخون إذا أمن العقوبة العاجلة، ويظلم إذا امتلك القوة، ويتنازل عن الحق

إذا خسر المصلحة، كأن الحساب خبرٌ لا صلة له بواقعه. إن هذا لا ينفي أصل إيمانه بالضرورة، لكنه يكشف أن الحقيقة لم تبلغ بعدُ مركز القرار فيه.

الإيمان الصحيح لا يخلق الآخرة، لكنه يخلق في الحياة أثر الآخرة قبل مجيئها.

الآخرة حق ولو لم تُثمر في وعينا

ومع كل ما يصنعه الإيمان من أثر، ينبغي أن تبقى القاعدة محفوظة: لو عاش إنسانٌ مؤمنًا بالآخرة ولم يدرك جميع أبعادها الوجودية، لبقيت الآخرة حقًّا؛ ولو عجز الخطباء عن بيان حكمتها، لما نقص من وقوعها شيء؛ ولو أخفقت مجتمعاتٌ مؤمنة في تحويلها إلى عدلٍ وأمانة، لكان إخفاقها شاهدًا عليها لا نقضًا لها.

إن الحقيقة لا تُختبر فقط بمقدار نجاح البشر في تمثلها؛ لأن البشر محدودون، تتنازعهم الأهواء والغفلات. وقد يحمل الإنسان أثمن حقيقةٍ ثم يفرط في مقتضاها، كما يحمل مصباحًا ثم يغلق عينيه. لا يُدان النور بإغماض العين، وإنما تُدان العين التي اختارت الظلام مع وجوده.

ولهذا لا ينبغي أن نجعل الدفاع عن الآخرة معلقًا على الادعاء أن كل من آمن بها صار أفضل بالضرورة؛ فالتاريخ والواقع يشهدان أن الإيمان قد يضعف أثره، وأن المعرفة قد تنفصل عن العمل. البرهان الأصدق هو خبر الله ودلائل الوحي وقدرته على الخلق والإعادة؛ أما صلاح المؤمن فهو ثمرةٌ مطلوبة وشهادةٌ نافعة، لكنه ليس المصدر الذي تقوم عليه الحقيقة.

إن الآخرة لا تحتاج إلى مثالية المؤمن كي تكون، لكن المؤمن يحتاج إلى صدق الآخرة كي يعرف مقدار تقصيره ويعود.

قبل أن يتحول الإيمان إلى رؤية

في الدنيا ينقسم الناس إلى مؤمنٍ ومنكر، لأن باب الغيب ما يزال قائمًا؛ أما في الآخرة فلن يبقى هذا الانقسام من جهة الاعتراف بالوجود. سيرى الجميع، وسيعلم الجميع، وستسقط إمكانية أن يقول أحد إن القيامة مجرد فكرةٍ لأصحابها. لكن الفرق سيكون في زمن المعرفة: المؤمن عرف حين كانت المعرفة تكليفًا، والمنكر عرف حين صارت المعرفة نتيجة.

وهذا هو شرف الإيمان بالغيب: أن يتطابق قلب الإنسان مع الحقيقة قبل أن تقهره المشاهدة، وأن يعطي خبر الله من الثقة ما يجعله يبني عليه حياته، لا أن ينتظر حتى يرى ثم يقر بما لم يعد في وسعه إنكاره.

يقول تعالى عن المجرمين: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾. لقد جاء اليقين، لكنه جاء بعد انقضاء وظيفته الامتحانية؛ أبصروا وسمعوا، غير أن طلب الرجوع يكشف أن الحقيقة لم تكن تحتاج إلى يقينهم المتأخر، بل كانوا هم المحتاجين إلى يقينٍ سابق يغيّر أعمالهم.

إن قولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ لا يضيف شيئًا إلى الواقعة التي أحاطت بهم؛ إنه يصف تحطم الإنكار في داخلهم. لكن المعرفة التي لا تستطيع أن تعود إلى زمن العمل تصبح حسرةً، لا هداية؛ وترى الحقيقة، لكنها لا تملك أن تعيد تشكيل المصير الذي كتبته أيام الغفلة.

الحقيقة لا تتقوى بنا

قد يشعر المؤمن أحيانًا أنه حين يدافع عن الآخرة فإنه يقوي حقيقتها أمام المنكرين؛ لكن الحق لا يزداد حقًّا بحججنا، وإن ازداد ظهوره للناس، ولا يضعف في ذاته بعجزنا عن البيان، وإن خفي عن بعض العقول. نحن نقوّي حضور الحقيقة في الوعي، لا حقيقتها في الوجود؛ ونزيل الشبهة عنها عند الناس، لا نقصًا فيها.

وهذا يمنح الداعية والمفكر تواضعًا عميقًا؛ فهو لا يحمل الآخرة على كتفيه، ولا يخشى عليها من سقوطٍ إن عجز عن إقناع الجميع. عليه البلاغ والبيان وإقامة الحجة، أما أمر الحقيقة فثابتٌ بالله. وإذا أعرض الناس، فليس معنى ذلك أن الآخرة خَسرت مناظرتها، بل أن المعرضين خسروا فرصةً أخرى لرؤيتها قبل أن تُرى.

إن كثرة الإيمان نعمةٌ للناس، لا قوةٌ مضافة إلى وعد الله؛ وكثرة الإنكار فتنةٌ للناس، لا خطرٌ على قضائه. فالساعة لا تسأل عن عدد المصوتين لمجيئها، والنفخة لا تنتظر موافقة الحضارات، والقبور لا تبقى مغلقةً لأن عصرًا كاملًا استبعد البعث.

الإيمان الذي يضع الإنسان في موضعه

أعظم ما يفعله الإيمان بالآخرة أنه يعيد الإنسان إلى حجمه الصحيح: مخلوقٌ مكرم، مختارٌ في مساحة التكليف، لكنه ليس سيّد الحقيقة؛ قادرٌ على أن يحدد موقفه، لكنه عاجزٌ عن تحديد المصير الكوني؛ يملك أن يطيع أو يعصي، لكنه لا يملك أن يلغي اليوم الذي يظهر فيه أثر الطاعة والمعصية.

وهذا الموضع لا يهين الإنسان، بل ينقذه من حملٍ لم يُخلق له؛ ينقذه من وهم أن الوجود ينتظر تفسيره حتى يكون، وأن الحقائق لا تقوم إلا داخل وعيه، وأنه يستطيع

بالإعراض أن يحذف ما لا يريده من بنية الكون. حين يعرف أنه عبدٌ داخل حقيقة أكبر منه، تتحول حريته من محاولة السيطرة على المصير إلى حسن الاختيار في الطريق.

إنه لا يقول: سأؤمن بالآخرة لكي تكون، بل: سأؤمن بها لأنها ستكون. ولا يقول: سأرجو الجنة حتى أصنعها في مخيلتي، بل: سأعمل لها لأن ربي وعد بها. ولا يقول: سأرفض النار لعل رفضي يمحوها، بل: سأهرب منها إلى رحمة الله بالطاعة والتوبة. هنا ينتقل الإيمان من التمني إلى العبودية، ومن صناعة الوهم إلى الاستعداد للحقيقة.

وعند هذا الحد تتضح خلاصة الفصل:

الإيمان لا يمنح الآخرة حقيقة الحدوث، بل يمنح المؤمن بصيرة الاستعداد، ولا ينقل اليوم الآخر من العدم إلى الوجود، بل ينقل الإنسان من الغفلة عنه إلى الوعي به.

فالآخرة حقٌّ قبل أن يؤمن بها المؤمن، وستبقى حقًّا لو أنكرها المنكر، وستظهر حقًّا حين يقف الجميع فيها. وإنما يقع أثر الإيمان والإنكار في الإنسان نفسه: هذا آمن بالحقيقة فشكّلت طريقه، وذاك أنكرها فواصل السير إليها بلا زاد.

إن المؤمن لا يخلق الآخرة بإيمانه، إنه فقط يرفض أن ينتظر وقوعها كي يعترف بها. يراها اليوم بنور خبر الله، ليكون غدًا ممن يستقبلون تحقق الوعد، لا ممن يكتشفون متأخرين أن الحقيقة لم تكن يومًا في حاجة إلى تصديقهم.

الفصل الخامس

الإنكار لا يُلغي الموعد

إذا كان الإيمان لا يصنع الآخرة، فإن الإنكار لا يستطيع إلغاءها؛ لأن التصديق والتكذيب فعلان يقعان في وعي الإنسان، أما القيامة ففعلٌ من أفعال الله، ولا يملك ما يجري داخل النفس البشرية أن يعطل ما قضاه الله في الوجود. يستطيع المنكر أن يرفض الخبر، وأن يسخر من البعث، وأن يعيد تفسير الموت بما يوافق رؤيته، لكنه لا يستطيع أن يأمر الزمن بالتوقف، ولا القبور بألا تُبعثر، ولا الأجساد بألا تُعاد، ولا الساعة بألا تقوم.

إن الإنكار لا يتوجه في الحقيقة إلى الآخرة ذاتها؛ إذ لا تصل إليها يد الإنسان حتى تغيرها، وإنما يتوجه إلى صورته الذهنية عنها. يحذفها من حسابه، لا من الوجود؛ ويقصيها من لغته، لا من موعدها؛ ويعيش كما لو أنها لن تقع، لكنه لا يجعلها بذلك أقل وقوعًا. وكل ما يحققه الإنكار هو أن يترك صاحبه بلا استعداد أمام اليوم الذي حاول أن يخرجه من وعيه.

إن من يغلق عينيه لا يلغي الطريق، لكنه يفقد القدرة على رؤية منعطفاته؛ ومن يكسر الساعة لا يوقف الزمن، لكنه يحرم نفسه معرفة ما مضى منه؛ ومن يرفض تحذير الخطر لا يزيل الخطر، لكنه يعطل الوسيلة التي كان يمكن أن تنقذه. كذلك منكر الآخرة: لا يصيب الحقيقة بإنكاره، وإنما يصيب بصيرته؛ ولا يضعف الموعد، وإنما يضعف موقفه منه.

والقرآن حين يعرض أقوال المكذبين لا يعرضها كقوةٍ تنازع القيامة إمكان وقوعها، بل بوصفها مظهراً من مظاهر الغفلة والكبر والاستبعاد. إنهم يقولون، والساعة آتية، ويسخرون، والموعد ثابت، ويطالبون بتعجيل العذاب، ولا يدركون أن استعجالهم نفسه لا يقدم الموعد ولا يؤخره، وإنما يسجل عليهم طريقة استقبالهم للإنذار.

حق الإنسان في الموقف لا يعني سلطته على الحقيقة

منح الله الإنسان قدرةً على الاختيار، فاستطاع أن يؤمن أو يكفر، ويطيع أو يعصي، ويذكر أو يغفل؛ لكن حرية الاختيار لا تعني السيادة على نتائج الاختيار، ولا تخوّل الإنسان أن يعيد كتابة نظام الوجود كلما لم توافقه نهايته. يستطيع أن يختار موقفه من النار، لكنه لا يختار طبيعتها؛ وأن يقرر كيف يعيش قبل الحساب، لكنه لا يقرر هل يكون الحساب؛ وأن يسلك طريقًا، لكنه لا يملك أن يفرض على الطريق نهايةً غير التي جعلها الله له.

وهذا الخلط بين حرية اتخاذ الموقف وسلطة تغيير الحقيقة هو أحد أوهام الإنسان المعاصر؛ إذ قد يتصور أن احترام اختياره يقتضي أن تكون كل اختياراته صحيحة، وأن من حقه، ما دام حرًّا في الاعتقاد، أن يكون الواقع مطابقًا لما اعتقده. لكن الحرية الأخلاقية لا تصنع حقائق متعددة؛ إنما تضع الإنسان أمام حقيقةٍ واحدة، ثم تحمله مسؤولية موقفه منها.

للإنسان أن ينكر المرض، وليس للمرض أن يحترم إنكاره فيتوقف. وله أن يرفض قانون السقوط، وليس للأرض أن تعطل الجاذبية إكرامًا لرؤيته. وله أن يتجاهل أجله،

وليس للموت أن يستأذنه. فلماذا يتحول حقه في رفض خبر الآخرة إلى دعوى ضمنية بأن الرفض يستطيع إلغاءها؟

إن الله لم يكره الإنسان على الإيمان في الدنيا؛ لأنه خلقه للابتلاء، لكنه لم يجعل كفره قوةً فوق قضائه. ترك له مساحة الموقف، ولم يترك له أمر المصير. وهذا هو معنى المسؤولية: لو كان الإنسان يملك تغيير الحقيقة بإنكارها، لما كان مخطئًا أو مصيبًا، بل خالقًا لعالمه؛ ولو كان كل اعتقادٍ يصنع نهايته الخاصة، لما كان للوحي وظيفة، ولا للتحذير معنى، ولا للحساب عدل.

إن حرية الإنسان تثبت أنه مسؤول عن الطريق الذي اختاره، ولا تثبت أنه ربّ الطريق ونهايته.

التكذيب لا يتجاوز صاحبه

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾؛ فالكفر لا يصعد إلى ملك الله فينقصه، ولا يمتد إلى الحقيقة فيمحوها، بل يرجع أثره على صاحبه. إن التكذيب دائرةٌ مغلقة تبدأ من الإنسان وتنتهي إليه؛ قد ينتشر أثرها في المجتمع، ويضل بها آخرون، لكنها لا تصل إلى وعد الله فتبطله.

ومن هنا نفهم هدوء الخطاب القرآني في مواجهة المكذبين؛ فهو يقيم عليهم الحجة، ويكشف تناقضهم، ويضرب لهم الأمثال، لكنه لا يتحدث بلهجة حقيقةٍ خائفةٍ من أن تفقد وجودها إذا لم يصدقها الناس. يقول تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. القسم هنا لا يستمد قوته من قبول المخاطب، بل يواجه الإنكار بيقين المصدر وسهولة الفعل على الله.

قد يقول المنكر: لن أُبعث، فيأتي الجواب: ﴿بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾. إن قوله لا يفتح احتمالًا جديدًا في مستقبل الكون، بل يكشف جهله به؛ أما جواب الوحي فيعيد الأمر إلى يقينه. سيُبعث الذي آمن، وسيُبعث الذي أنكر، وسيُنبأ كل واحدٍ بما عمل. فلا يكون الكفر استثناءً يخرج صاحبه من نطاق البعث، بل يصبح عملًا من الأعمال التي سيُنبأ بها بعد البعث.

وهذه مفارقة الإنكار الكبرى: يحاول المنكر أن يلغي الحساب، فإذا إنكاره نفسه يدخل في الحساب؛ ويحاول أن يخرج من سلطة اليوم الآخر، فإذا موقفه منه يصبح جزءًا من كتابه؛ ويريد أن يجعل الآخرة غير موجودة، فإذا بها الموضع الذي تنكشف فيه حقيقة إنكاره.

الإنكار ليس معرفةً بالعدم

لا يملك منكر الآخرة تجربةً تثبت عدمها؛ لأنه لم يعبر الموت ثم يحيط بما وراءه، ولم يشهد نهاية الزمن، ولم يملك علمًا بالوجود كله. إن ما يقدمه غالبًا ليس علمًا بعدم البعث، بل غيابًا لخبرته الحسية به، ثم يحول غياب الخبرة إلى حكمٍ على الوجود. وهذه قفزة لا يجيزها العقل؛ فالقول: «أنا لم أشهد» يختلف جذريًّا عن القول: «ليس موجودًا»، والقول: «لا أعرف كيف يقع» لا يساوي: «يستحيل أن يقع».

إن العدم لا يُرى حتى يشهد به المنكر، والمستقبل لم يُفتح له حتى ينفي ما فيه، وما وراء الموت ليس مختبرًا دخل إليه ثم عاد منه بتقريرٍ مضاد. كل ما لديه أن الموت في حدود تجربته ينهي الحركة الظاهرة للجسد، ثم يضيف من عنده أن هذه النهاية الحسية

هي النهاية المطلقة للإنسان. لكن هذه الإضافة ليست نتيجة الحس، بل تفسيرٌ فلسفي للحس؛ إذ إن العين ترى الجسد ساكنًا، ولا ترى حكمًا كونيًّا يقول إن الله لن يبعثه.

وحتى تحلل الجسد لا يحمل في ذاته دليل الاستحالة؛ لأنه يصف ما يقع للمادة في الدنيا، ولا يحدد ما تستطيع قدرة الله أن تفعله بها بعد ذلك. المنكر يرى العظام رميمًا، ثم يجعل وصفها الحاضر حكمًا على مستقبلها؛ أما القرآن فيرد السؤال إلى منشئها: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

ليس البرهان هنا مجرد تشابهٍ بين بدايةٍ وإعادة، بل كشفٌ لخطأ المرجعية؛ فالإنسان ينظر إلى العظام ويسألها ضمنًا: هل تستطيعين أن تعودي؟ والجواب أنها لا تعيد نفسها، كما أنها لم تنشئ نفسها أول مرة. السؤال الصحيح هو: هل يستطيع خالقها أن يعيدها؟ وحين ينتقل السؤال من عجز المخلوق إلى قدرة الخالق، يسقط أساس الاستبعاد.

إن إنكار البعث كثيرًا ما يقوم على النظر إلى الموت بوصفه فاعلًا نهائيًّا مستقلًّا، مع أن الموت مخلوقٌ من خلق الله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾. وما كان مخلوقًا لا يملك أن يضع حدًّا لقدرة خالقه، ولا أن يحتفظ بمن ماتوا إذا أُمر بإخراجهم إلى حياةٍ أخرى.

السخرية لا تُضعف الحقيقة

حين يعجز الإنسان عن نقض الخبر، قد يحاول تخفيف ثقله بالسخرية؛ لأن تحويل الحقيقة إلى مادةٍ للضحك يمنح النفس شعورًا مؤقتًا بالتفوق عليها. وقد سجّل القرآن هذا المسلك في أقوال المكذبين الذين استبعدوا أن يعودوا بعد أن يكونوا ترابًا وعظامًا، أو طالبوا بالموعد تحديًا، أو جعلوا الرسول موضع تعجب لأنه يخبرهم بالبعث.

لكن السخرية لا تعمل خارج نفس الساخر، إنها تغيّر الجو النفسي المحيط بالحقيقة، لا الحقيقة نفسها. قد تجعل الجمهور أقل إنصاتًا، وتمنح المكذب راحةً من جدية السؤال، لكنها لا تقدم برهانًا، ولا تمس قدرة الله، ولا تؤخر الموعد لحظة.

إن الضحك من التحذير لا يحول الخطر إلى مزحة، واحتقار الرسول لا يجعل خبره كاذبًا، وكثرة المستهزئين لا تُنتج معرفة. ولطالما ضحك قومٌ من حقائق ثم أحاطت بهم؛ لا لأن الحقيقة انتقمت من ضحكهم، بل لأنهم استعملوا السخرية بدل النظر، فضاعت منهم فرصة الإدراك.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. إنهم يحولون الخبر إلى تحدٍّ زمني، كأن تأخر المشاهدة دليلٌ على عدم الوقوع، فيأتي الجواب بتثبيت الحد الفاصل بين الإمهال والإهمال: إن تأخر الآيات لا يعني العجز عنها، وإنما يعني أن للموعد حكمةً ووقتًا.

الساخر يظن أن الحقيقة إن لم تعاقبه فورًا فقد سقطت، ولا يدرك أن من طبيعة الاختبار أن تمتد المسافة بين الفعل ونتيجته. لو كانت كل معصية تُعاقب في لحظتها، وكل تكذيب يواجه صاحبه فورًا بالمشهد الذي أنكره، لما بقي للغيب معنى، ولا للاختيار مجال.

التأخير ليس إلغاءً

من أكثر ما يخدع الإنسان أن يخلط بين تأخر الشيء وعدم وقوعه. تمر الأيام ولا تقوم الساعة، وتتوالى الأجيال، ويظل نظام العالم قائمًا، فينشأ في النفس وهمٌ خفي بأن

ما لم يقع طويلًا لن يقع. غير أن مرور الزمن لا يبطل الوعد، بل يستهلك المدة المحددة قبله، وكل يومٍ يبدو للغافل دليل تأخير هو في الحقيقة خطوة اقتراب.

إن الموعد البعيد لا يصبح ملغيًّا لأن المنتظر استعجله، والقضاء المؤجل لا يتحول إلى وهم لأن أجيالًا ماتت قبله. نحن نقيس طول الانتظار بأعمارنا القصيرة، ثم نحاكم وعد الله بهذا القياس، كأن ما تجاوز المدى الذي تألفه النفس قد خرج من إمكان الوقوع.

وقد واجه القرآن هذا الوهم: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. فالمشكلة في حساب الإنسان، لا في صدق الوعد، إنه يقيس الغيب بساعة عمره، ويحسب أن مرور السنين يُضعف الخبر، مع أن الزمن كله داخل ملك الله.

إن الآخرة «مؤجلة» من جهة التجربة البشرية، لا من جهة الشك في وقوعها. والتأجيل هنا تحديدٌ للموعد، لا تعليقٌ للقرار، فرقٌ بين فعلٍ قد يحدث وقد لا يحدث، وفعلٍ سيحدث حين يحين وقته. لقد شاء الله أن تسبق القيامةَ دنيا التكليف، وأن تُمنح النفوس زمنًا للعمل، وأن تتعاقب الأجيال إلى أجلها، فلا تكون هذه المهلة نقيضًا للآخرة، بل الطريق إليها.

والمنكر الذي يستدل بالتأخير ينسى موته، فقد تتأخر القيامة الكبرى في حسابه، لكن انتقاله من الدنيا لا ينتظر نهاية العالم. إن لكل إنسان ساعةً خاصةً تنتهي بها فرصة الإنكار والعمل، وحين يأتي الأجل لا يستطيع أن يقول: سأنتظر برهانًا آخر. فالموت لا يقيم القيامة العامة، لكنه يغلق على الفرد باب الدنيا، ويضعه في طريقٍ لا رجعة منه إلى زمن الاختيار.

الغفلة إنكارٌ عملي

ليس كل إنكارٍ للآخرة تصريحًا فلسفيًّا يقول إن البعث مستحيل؛ فقد يؤمن الإنسان بها بلسانه، لكنه يعيش كأنها لن تقع. وهذا الإنكار العملي أوسع انتشارًا وأخفى أثرًا؛ لأن صاحبه لا يشعر أنه يعارض العقيدة، بل يحتفظ بها في موضعٍ بعيد من ذهنه، بينما تبني شهواته ومصالحه قراراته اليومية.

يقول: الحساب حق، ثم يتصرف في الخفاء كأن لا رقيب؛ ويقول: الحقوق ستُستوفى، ثم يظلم من لا يملك الدفاع عن نفسه؛ ويقول: الدنيا فانية، ثم يبيع قيمه من أجل جزءٍ صغير منها؛ ويقول: الجنة والنار حق، ثم لا يظهر في ميزانه أثرٌ حقيقي لهذا التصديق. ليست المشكلة في نقص المعلومات، بل في أن الآخرة غائبةٌ عن مركز الإرادة.

وهذا الغياب لا يلغي الموعد مثلما لا يلغيه الإنكار الصريح، لكنه قد يكون أشد خداعًا؛ لأن صاحبه مطمئن إلى أنه مؤمن، فلا يراجع الفاصل بين قوله ومساره. والمنكر الصريح يعرف أنه اتخذ موقفًا، أما الغافل فقد يظن أنه مستعد لمجرد أنه لم ينفِ العقيدة بلسانه.

إن الإيمان الذي لا يغير شيئًا في ترتيب الأولويات يحتاج إلى أن يُسأل عن درجة حضوره، لا عن مجرد وجود اسمه. فالآخرة ليست معلومةً ثقافيةً يُحتفظ بها، بل حقيقةٌ ينبغي أن يتكيف العمل معها؛ وإذا كانت ستقع سواء استحضرها المرء أم نسيها، فإن النسيان يصبح خسارةً خالصة لا راحةً آمنة.

وقد سمى القرآن هذا الصنف من الحال ظنًّا بعدم الرجوع، أو غفلةً عن الحساب، أو إيثارًا للحياة الدنيا، لأن السلوك يكشف العقيدة العملية التي تحكم الإنسان، ولو خالفها لسانه. من عاش للعاجل وحده، ومنح الدنيا حكم النهاية، وتصرف على أن ما يفوته فيها لن يُستدرك أبدًا، فقد جعلها في ميزانه الواقعي أكبر من الآخرة، وإن لم يجرؤ على إنكارها لفظًا.

لا يملك المنكر أن يختار العدم

قد يتمنى بعض الناس ألا تكون هناك آخرة، لا لأن لديهم برهانًا على عدمها، بل لأن العدم يبدو لهم أيسر من الحساب. إن الفناء الكامل، في هذا التصور، يمنح الإنسان حريةً بلا عاقبة؛ يفعل ما يشاء، ثم يذوب مع فعله، فلا يبقى مظلومٌ يطالب، ولا كتابٌ يشهد، ولا ميزانٌ يزن.

لكن الرغبة في العدم ليست دليلًا عليه، كما أن الخوف من الحقيقة لا يحولها إلى وهم. يستطيع الإنسان أن يتمنى نهايةً بلا بعث، لكنه لا يملك اختيار البنية التي خلق الله عليها الوجود. لم يختر أن يولد، ولم يختر قوانين جسده، ولم يختر خضوعه للموت، ولن يختار أن يبقى في القبر إذا نودي للحشر.

إن وهم اختيار العدم هو آخر محاولات النفس للسيادة على المصير؛ تتصور أن رفضها للخلود يستطيع أن يعفيها منه، مع أن الإنسان مملوكٌ لله في وجوده الأول وإعادته. يقول تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. الأفعال الثلاثة كلها لله: يحيي، ويميت، ويجمع؛ والإنسان واقعٌ تحت القدرة نفسها في المراحل كلها.

فكما لم يستأذن في أصل حياته، لا يُجعل إنكاره شرطًا في إعادته، وكما لم يصنع نفسه أول مرة، لا يملك أن يمنع جمعه مرةً أخرى. إن الذي يتمنى العدم لا يملك العدم، بل يملك زمنًا محدودًا يختار فيه الطريق الذي يلقى به الحياة الباقية.

منكر الحقيقة يسير داخلها

حتى وهو ينكر الآخرة، يعيش الإنسان داخل نظامٍ يقوده إليها. جسده يشيخ، وأجله ينقص، وأعماله تُكتب، والزمان يحمله إلى الموعد. ليس الإنكار طريقًا خارج الحقيقة، بل موقفٌ نفسي داخل الطريق نفسه.

قد يتصور المنكر أنه بترك الإيمان قد غادر الخريطة الدينية كلها، لكنه لم يغادر خلق الله، ولا علمه، ولا ملكه، ولا حكمه. يتنفس بإذن الله، ويعيش في أرضه، وتجري عليه سننه، ثم يموت بأجله ويُبعث بأمره. إنكاره لا ينشئ منطقةً مستقلةً خارج الربوبية؛ فهو عبدٌ من حيث الخلق والقهر وإن رفض عبودية الطاعة والاختيار.

وهذا معنى شديد الوضوح في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾. لم يستثنِ المنكر لأنه رفض المجيء، ولم يجعل الإيمان شرطًا في الإتيان؛ فالجميع آتوه، والجميع محصون في علمه، وكل واحد يأتي فردًا وقد سقطت عنه الجماعات والتصورات التي كان يتكئ عليها.

إنه يسير إلى الله في اللحظة التي يقول فيها إنه لن يلقاه، وتُحصى عليه كلماته وهو ينكر الإحصاء، ويحمل في جسده علامة الفناء وهو يظن أن الموت سيخرجه من سلطان

خالقه. وما أضعف الإنكار حين يُنظر إليه من هذه الزاوية: فكرةٌ عابرة في عقل مخلوق، تحاول أن تلغي موعدًا قضاه خالق العقل والزمن والموت.

إنكار الاسم لا يغيّر المسمّى

قد لا ينكر الإنسان الآخرة مباشرة، لكنه يعيد تعريفها حتى تفقد حقيقتها؛ فيقول إنها أثر الإنسان الذي يبقى بعد موته، أو الذكرى التي يتركها في الأجيال، أو الحالة النفسية التي يعيشها في الدنيا، أو انتصار الخير في المستقبل. وتستعمل كلمة «الآخرة»، لكن مدلولها القرآني يُستبدل بشيءٍ آخر.

وهذا الإنكار أشد التباسًا؛ لأنه يحتفظ باللغة ويغير الحقيقة. فليس كل من نطق بالبعث مؤمنًا بالبعث الذي أخبر الله به، وليس كل من تحدث عن الخلود قد أقر بحياة الأجساد والأرواح في الدار الآخرة. قد تُستعار الأسماء الدينية لتغطية رفض مضمونها، فيبدو التأويل موافقةً وهو في جوهره إلغاء.

لكن تغيير المسمّى في الوعي لا يغير المسمّى في الوجود؛ فالقيامة لن تتحول إلى «ذكرى جميلة» لأن قارئًا حديثًا ضاق بفكرة الحشر، والجنة لن تصبح مجرد راحة ضمير، والنار لن تنحصر في القلق النفسي، والحساب لن يكون استعارةً عن محكمة التاريخ. هذه المعاني قد توجد في الدنيا، لكنها ليست بدائل عن حقائق الآخرة.

إن الإنسان قد يحمي نفسه من صدمة الإنكار الصريح بهذا التأويل، فيقول: أنا لا أنكر، بل أفهم فهمًا مختلفًا؛ غير أن الميزان ليس احتفاظه باللفظ، بل موافقة فهمه لخبر الله. فإذا كان الوحي يتحدث عن خروجٍ من الأجداث، وحشرٍ للأجساد، وكتبٍ

توضع، وموازين تُنصب، وجنةٍ يدخلها أهلها، ونارٍ يساق إليها المجرمون، فإن تحويل هذا النظام كله إلى رموزٍ نفسية لا يفسره، بل يستبدله.

والآخرة الحقيقية لا يضرها هذا الاستبدال، لكن الإنسان قد يصل إليها حاملًا اسمها بعد أن أنكر حقيقتها.

لماذا ينكر الإنسان ما سيصل إليه؟

ليس الإنكار دائمًا نتيجة نقص البرهان، فقد يكون هروبًا من التبعة. إن الآخرة لا تخبر الإنسان بأنه باقٍ فحسب، بل تخبره بأنه مسؤول، وهذه المسؤولية هي الجانب الذي يثقل على النفس أكثر من إمكان البعث ذاته. فقد يقبل الإنسان فكرة استمرار الحياة إن كانت استمرارًا للمتعة، لكنه يرفضها حين تكون انكشافًا للعمل.

ولهذا يربط القرآن بين إنكار البعث ورغبة الإنسان في المضي أمامه بلا قيد: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾. إن السؤال هنا لا ينفصل عن الإرادة الأخلاقية؛ يريد أن يفتح أمام شهوته طريقًا بلا نهاية، فيتحول إنكار الساعة إلى وسيلةٍ لتحرير الهوى من مراقبة المصير.

فالحقيقة حين تكون ملزِمةً لا يواجهها العقل وحده، بل تواجهها الرغبة أيضًا. وقد يعرف الإنسان من الدلائل ما يكفيه، ثم يطلب مزيدًا لا رغبةً في اليقين، بل تأجيلًا للانقياد. ولو أتاه الدليل الذي طلبه، انتقل إلى شرطٍ آخر؛ لأن المشكلة ليست دائمًا في غياب النور، بل في عينٍ تعرف أن فتحها سيغيّر الطريق الذي تحبه.

إن الإيمان بالآخرة يعني أن اللذة ليست معيار الصواب، وأن القوة لا تعفي من المحاسبة، وأن الخلوة لا تخرج الفعل من العلم، وأن الإنسان سيواجه نفسه بلا أقنعة.

ومن أراد حياةً بلا هذه الحدود قد يجد في الإنكار راحةً مؤقتة، لكنه كمن يمحو من خريطته علامة الهاوية حتى يقود مطمئنًا نحوها.

الاعتراف المتأخر لا يغيّر الماضي

سينتهي الإنكار، فليس له خلودٌ أمام الحقيقة. حين تقوم الساعة، لن يبقى منكرٌ واحد بمعنى من ينفي وقوعها، لأن الواقعة ستصير محيطه المباشر. لكن انتهاء الإنكار لا يعني نجاة المنكر، فالمشكلة لم تكن أن الحقيقة بحاجة إلى اعترافه، بل أنه كان بحاجة إلى الاعتراف بها في زمن العمل.

سيقول من يقول: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾. لقد انتقلوا من الإنكار إلى اليقين، لكن الانتقال جاء بعد أن أُغلق الطريق بين اليقين والعمل. لا يطلبون أن تُثبت لهم الآخرة، فقد ثبتت بالمشاهدة، وإنما يطلبون زمنًا جديدًا يصنعون فيه موقفًا مختلفًا منها.

وهذه الحسرة تكشف أن الإيمان لم يكن مطلوبًا ليمنح الآخرة حقيقتها، وإلا لكفى إيمانهم المتأخر، لكنه كان مطلوبًا ليبني فعلهم قبل الحساب. فلما جاء التصديق بعد انقضاء زمن التغيير، لم يضف إلى الحقيقة شيئًا ولم يعد قادرًا على إصلاح الكتاب.

إن كل إنسان سيعرف، لكن ليست كل معرفةٍ منجية، وسيوقن، لكن ليس كل يقينٍ صالحًا للعمل. هناك يقينٌ يأتي من الثقة بخبر الله فيصنع الطريق، ويقينٌ يفرضه المشهد بعد نهاية الطريق فلا يصنع إلا الحسرة.

الموعد لا يدخل في مفاوضة

ليس بين الإنسان والقيامة تفاوضٌ يستطيع فيه أن يقترح موعدًا آخر، أو نظامًا أخف، أو نهايةً تناسب تصوره. لقد انتهى الأمر من جهة الحكم، وبقيت الرحمة في البيان والمهلة والتوبة. من شاء أن ينجو فليغيّر نفسه، لا أن يطلب تغيير الحقيقة؛ ومن خاف الحساب فليصحح عمله، لا أن يعيد تعريف الحساب؛ ومن ثقلت عليه النار فليفر منها إلى الله، لا أن يحاول إطفاءها بإنكارها.

إن أكثر التصورات عبثًا أن يتعامل الإنسان مع الغيب كأنه نصٌّ بشري قابلٌ لإعادة التفاوض؛ يحذف منه ما لا ينسجم مع عصره، ويخفف ما يجرح حساسيته، ويحتفظ بما يمنحه السكينة. لكن الآخرة ليست مشروعًا ثقافيًّا أُرسل لأخذ الملاحظات، بل قضاء الله الذي بلّغه رحمةً بعباده.

لا يعني هذا إغلاق باب السؤال الصادق أو النظر العقلي؛ فالقرآن نفسه يقيم الحجج ويجيب عن الشبهات. لكنه يفرق بين عقلٍ يسأل ليعرف، ونفسٍ تفاوض كيلا تلتزم. الأول يطلب فهم الحقيقة، والثانية تطلب حقيقةً أخرى.

والحقيقة الأخرى لن تأتي؛ لأن الموعد واحد.

الإنكار يخسر الزمن ولا يؤخر النهاية

إن أخطر ما يأخذه الإنكار من الإنسان ليس فكرةً في ذهنه، بل الزمن الذي كان يمكن أن يستعد فيه. كل عامٍ يقضيه في الجدل غير الصادق لا يعود، وكل يومٍ يعيش فيه كأن لا حساب يكتب من سيرته ما سيقرأه في الحساب، وكل حقٍّ يؤجله اعتمادًا على أن الموت نهاية قد يلقاه خصمًا بعد الموت.

أما الآخرة فلا تخسر شيئًا من هذا الزمن؛ هي ثابتةٌ في موعدها، وهو الذي ينقص عمره. يظن أنه يمنح نفسه مهلةً من الحقيقة حين يؤجل التفكير فيها، بينما هو يستهلك المهلة الوحيدة التي منحها الله له. فالنسيان لا يوقف العداد، والسخرية لا تعيد يومًا مضى، والإنكار لا يضيف إلى الأجل ساعة.

إن الحقيقة لا تطارده من خارج وجوده فقط؛ بل تحملها أيامه إليه. كل دقيقةٍ تمضي حجةٌ على أن الزمن لا يعود، وكل وفاةٍ يراها رسالةٌ بأن الطريق ذو نهاية، وكل تغيرٍ في جسده تذكيرٌ بأن الإقامة مؤقتة. ومع ذلك يستطيع أن يحول التكرار إلى ألفة، والألفة إلى غفلة، حتى يصير الموت الذي يراه كل يوم أقل حضورًا في قلبه من مشروعٍ صغيرٍ للغد.

لكن ما يغيب عن القلب لا يغيب عن الطريق.

الموعد الذي يعم المؤمن والمنكر

حين يقال إن الآخرة قادمة، فلا يعني ذلك أنها قادمةٌ إلى المؤمنين وحدهم بوصفهم أصحاب الاعتقاد بها؛ إنها قادمةٌ إلى الإنسان من حيث هو إنسان، لأن البعث متعلقٌ بالخلق لا بالتصديق. يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾. الأولون والآخرون: لا تستثني العبارة عصرًا ولا أمةً ولا موقفًا، والجمع إلى ميقاتٍ معلوم يعني أن التاريخ كله يتحرك نحو نقطةٍ لا تضيع منها نفس.

يأتي المؤمن وقد كان ينتظر، ويأتي المنكر وقد كان يستبعد؛ يأتي المظلوم حاملًا حقه، ويأتي الظالم حاملًا ما ظنه قد مات بموت ضحيته؛ يأتي المشهور والمجهول، والملك

والفقـير، ومن ملأ الأرض حديثًا ومن لم يعرفـه إلا الله. لا يسـأل الحشر عن مكانـةٍ كانت في الدنيا، ولا يمنح أحدًا حق الغياب.

إن الموعد عام، لكن اللقـاء ليس متسـاويًا؛ فالحقيقـة التي تفتح للمؤمن باب تحقـق الوعد هي نفسها التي تفتح على المنكر باب انكشاف الخسارة. ليس الاختلاف في وقـوع اليوم، بل في معنى وقوعه على كل نفس؛ يومٌ واحد، لكنه على قـومٍ أمنٌ وبشرى، وعلى آخرين فزعٌ وحسرة.

الحقيقة لا تنتقم من الإنكار، بل تكشف نتيجته

ليس عذاب المنكر لأن الآخرة تضررت بإنكاره وتريد الانتقـام لهيبتهـا؛ فالله غـنيٌّ عنه، والحقيقة لا يصيبها نقص. وإنما الجزاء نتيجةٌ للتمرد على الله وما يترتب عليه من عملٍ واختيار، وإقامةٌ للعدل الذي أنكره الإنسان أو عاش متجاهلًا له.

إن الكفر لا يجرح الله، لكنه يفسد صاحبه، ويقطع صلته بمصدر الهدى، ويعيد ترتيب حياتـه حـول مركزٍ زائـف؛ فـإذا جاء الحسـاب لم يكن عقوبـةً على فكرةٍ نظريـة مجردة فحسب، بل كشفًا لمسارٍ كامل بُني على رفض الحق بعد قيام حجته.

والآخرة لا تفاجئ الإنسان بحكمٍ لم يُخبر به؛ لقـد سـبقت بالرسـل والآيات والإنذار، وفتحت أبواب التوبة، وأمهلت، وسترت، وأعادت التذكير. فإن جاء الجـزاء، جاء بعـد أن بلغ الخبر، وبعد أن امتد زمن الاختيـار. ومن هنـا لا يكـون وقـوع الحقيقـة قهـرًا بلا بيان، بل نهايةً عادلةً لطريقٍ اختاره الإنسان داخل رحمةٍ واسعة من الإنذار والإمهال.

لا سبيل إلى إلغاء القادم، ولكن السبيل مفتوحٌ لتغيير اللقاء

لا يستطيع الإنسان إلغاء الآخرة، لكنه يستطيع، ما دام حيًّا، أن يغيّر موقعه منها. لا يملك تبديل الموعد، لكنه يملك أن يتوب قبل الموعد؛ ولا يقدر على إسقاط الحساب، لكنه يستطيع أن يراجع حسابه اليوم؛ ولا يقدر على محو الميزان، لكنه يستطيع أن يثقل كفته بالصدق والخير؛ ولا يملك أن يلغي النار، لكنه يستطيع أن يسأل الله النجاة منها ويسلك طريق النجاة؛ ولا ينشئ الجنة بأمله، لكنه يستطيع أن يعمل لها ويرجو رحمة ربه.

وهذا هو الفرق بين اليأس والجدية. حتمية الآخرة لا تغلق باب الإنسان، بل تفتح أمامه الباب الوحيد النافع: باب تغيير النفس قبل أن يأتي اليوم الذي لا تتغير فيه الكتب. إن الذي يحاول تغيير الحقيقة يضيع وقته، والذي يقبلها يبدأ تغيير مصيره.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾. سمّى الآخرة غدًا، لا لأن المسافة الزمنية تُقاس بيومٍ أرضي، بل لقربها المحقق، ولأن ما بين الإنسان وبينها مهما طال سينقضي كما انقضى أمسه. ثم لم يقل: ولتنظر نفس هل يكون الغد، بل: ﴿مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾؛ فالغد ثابت، والسؤال متعلقٌ بما أُرسل إليه مسبقًا من الأعمال.

كل فعلٍ تقديم، وكل يومٍ إرسالٌ لشيءٍ إلى المستقبل، والإنسان سيصل إلى ما قدم. قد ينسى العمل بعد وقوعه، لكنه لا يخرج من الكتاب؛ وقد يموت من ظلمه، لكنه لا يأخذ حقه معه إلى العدم؛ وقد تختفي آثار الفعل من الأرض، لكنها لا تختفي من علم الله.

الخلاصة: الإنكار يغيّر صاحبه لا الحقيقة

ينتهي هذا الفصل إلى قاعدةٍ لا تحتمل الالتباس:

إنكار الآخرة لا يلغي الآخرة، بل يلغي حضورها من وعي المنكر؛ ولا يبدّل موعدها، بل يبدّل حاله عند الموعد؛ ولا يثبت عدمها، بل يكشف أنه اختار السير إلى حقيقةٍ لم يستعد لها.

فلا يستطيع الكافر أن ينشئ بكفره كونًا بلا بعث، كما لا يستطيع المؤمن أن ينشئ بإيمانه كونًا فيه بعث. الكون واحد، والخالق واحد، والوعد واحد، والمصير العام واحد؛ وإنما يختلف الناس في التصديق والعمل والمآل.

إن الآخرة لا تقع عقوبةً على إنكارها، ولا تتوقف مكافأةً على الإيمان بها؛ إنها تقع لأن الله قضى أن تقع. ثم يكون الإيمان والكفر والعمل والطاعة والمعصية موادَّ الحساب الذي يجري فيها. هي الحقيقة الثابتة، والإنسان هو المتحول؛ هي الموعد الذي لا يتبدل، وهو الذي يستطيع قبل وصوله أن يتبدل.

وما دام الإنسان حيًّا، فإن الرحمة لا تزال تتيح له أن يخرج من الإنكار إلى الإيمان، ومن الغفلة إلى الاستعداد، ومن تأجيل التوبة إلى صدق الرجوع. لكنه إن أصر حتى صار الغيب شهادة، فلن يكون اكتشافه للآخرة إلغاءً لإنكاره الماضي، بل إعلانًا أن الإنكار لم يلغ يومًا إلا فرصته في النجاة.

لقد كان يستطيع أن يراها بخبر الله، فاختار ألا يرى؛ فإذا جاءت، رآها رغمًا عنه. وعندئذٍ يعلم أن الحقيقة لم تكن بعيدةً لأنها غير موجودة، بل كانت محجوبةً رحمةً

وابتلاءً، وأن الموعد لم يكن ينتظر إيمانه، وإنما كان إيمانه هو الذي ينتظر منه أن ينقذه قبل الموعد.

الفصل السادس

حين تتحول الحقيقة الغيبية إلى مشاهدة

ليس الغيب عدمًا، وإنما حقيقةٌ حجبت عن أدوات الإنسان إلى أجل؛ فإذا جاء ذلك الأجل لم تُخلق الحقيقة لحظة انكشافها، بل سقط الحجاب الذي كان يفصل الحس عنها. والآخرة اليوم غيبٌ لأن الإنسان ما يزال داخل الدنيا، محكومًا بحدودها، يرى من الوجود ما تسمح به مرحلته، ويعرف ما وراءها بخبر الله؛ فإذا قامت الساعة، انتقل من عالم التكليف بالخبر إلى عالم المواجهة بالعيان، وصارت الحقيقة التي كان يستطيع تصديقها أو تكذيبها مشهدًا لا يستطيع الخروج منه.

وهذا الانتقال من الغيب إلى الشهادة هو التحول الأعظم في قصة الإنسان، لا لأن الآخرة تنتقل من اللاوجود إلى الوجود، بل لأن الإنسان ينتقل من عدم رؤيتها إلى رؤيتها، ومن سماع خبرها إلى الوقوف فيها، ومن امتلاك حرية إنكارها إلى العجز عن دفعها. كانت الآيات تقول له: ستُبعث، فإذا به مبعوث؛ وتحذره من الحساب، فإذا به موقوف؛ وتخبره عن الكتاب، فإذا به يراه منشورًا؛ وتصف له الميزان، فإذا أعماله موضوعةٌ فيه؛ وتذكر الجنة والنار، فإذا الوعد والوعيد قد صارا جهةً ومصيرًا.

إن ما يتغير يوم القيامة ليس صدق الخبر، فقد كان صادقًا منذ أخبر الله به، وإنما تتغير طريقة معرفة الإنسان له. يعرفه المؤمن في الدنيا بالوحي واليقين، ويعرفه الجميع في الآخرة بالحس الذي كانوا يجعلونه شرطًا للحقيقة. لكن الحس حين يشهد لا يعود طريقًا إلى الإيمان النافع؛ لأن زمن العمل كان قائمًا حين لم يكن المشهد مرئيًّا، أما بعد انكشافه فقد انتهى الامتحان، وصارت المعرفة جزءًا من النتيجة.

كشف الغطاء لا إنشاء المشهد

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. تختصر هذه الآية العلاقة بين الحقيقة ووعي الإنسان اختصاراً بالغ الدقة؛ فقد كان «هذا» موجوداً في الخبر والمصير، وكان الإنسان في غفلةٍ منه، وكان بين بصيرته وبينه غطاء؛ فلما جاء اليوم لم يقل الخطاب: أنشأنا لك ما لم يكن، بل: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾.

الغطاء كان على الإنسان، لا على علم الله؛ والحجب كان في إدراكه، لا في حقيقة المصير. كان يظن أن غياب الآخرة عن عينه غيابٌ لها عن الوجود، فإذا انكشافها يثبت أن العيب كان في مدى البصر، لا في وجود المبصَر. وما أشبه الإنسان بمن يعيش في غرفةٍ مغلقة ثم ينفي العالم خارج جدرانها؛ فإذا فُتح الباب لم يبدأ العالم عند انفتاحه، وإنما انتهى ضيق الغرفة.

إن قوله: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ لا يصف مجرد قوة الرؤية، بل سقوط القدرة على التهرب من مدلولها. كان يستطيع في الدنيا أن يرى الآية ثم يصرفها، ويسمع الخبر ثم يؤوله، ويشهد الموت ثم يقنع نفسه بأنه نهايةٌ بلا بعث؛ أما اليوم فالبصر نافذٌ إلى الحقيقة، لا تحجبه الشهوة، ولا تؤجله المصلحة، ولا تخفف وقعه ألفاظ المراوغة.

لكن حدة البصر بعد فوات العمل لا تعوض عمى البصيرة قبله؛ فالمطلوب لم يكن أن يملك الإنسان في الدنيا عيناً ترى الجنة والنار، بل قلباً يصدق من أخبر بهما. وحين رفض نور الخبر منتظراً قهر المشاهدة، جاءته المشاهدة بعد أن لم يعد يملك بها تغييراً.

نهاية المسافة بين «سيكون» و«هذا»

في الدنيا يأتي الحديث عن الآخرة بصيغة الوعد: ستقوم الساعة، وسيبعث الله من في القبور، وسيجمع الناس، وسيعرض الكتاب. وقد تتعامل النفس مع صيغة المستقبل كأنها تمنحها مسافةً آمنة، فتضع بين الحاضر والحدث جدارًا من التسويف، وتؤجل الاستجابة لأنها تظن أن ما سيأتي لاحقًا أقل اتصالًا بما تفعله الآن.

لكن يوم القيامة تتحول لغة المستقبل إلى اسم إشارة: ﴿هَـٰذَا مَا كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، و﴿هَـٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، و﴿هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. لقد انتهت المسافة بين الكلمة ومصداقها، وبين الوعد وموعده، وبين «سيكون» و«هذا».

إن اسم الإشارة شديد الوقع؛ لأنه يضع الحقيقة أمام صاحبها مباشرةً. لم يعد يستطيع دفعها إلى مستقبلٍ مجهول، ولا حبسها في كتابٍ يقرأه ثم يغلقه، ولا اعتبارها موعظةً تنتهي بانتهاء مجلسها. إنها هذه النار، وهذا يوم الفصل، وهذا ما وُعدتم؛ حاضرٌ لا يمكن تحويله إلى فكرة، ومحيطٌ لا يُترك بالانصراف.

وكلما قال الإنسان في الدنيا: ليس الآن، كان يؤجل استعداده لا الحقيقة؛ حتى إذا جاء «الآن» الأخروي، عرف أن الأزمنة التي أهدرها لم تكن فواصل فارغة، بل كانت المادة الوحيدة التي يستطيع أن يصنع بها حاله في ذلك المشهد. لقد جاء اليوم الذي كان يضعه دائمًا بعد غد، ولم يبق بعده غدٌ للعمل.

سقوط الاختلاف في أصل الوقوع

اليوم يختلف الناس في الآخرة: مؤمنٌ يصدق بها، ومنكرٌ ينفيها، ومترددٌ يعلق حكمه، وغافلٌ لا يمنح السؤال من نفسه وقتًا. أما حين تقوم الساعة، فسيسقط الاختلاف في

أصل وجودها؛ لن يبقى أحد يقول إنها لا تقع وهو واقعٌ فيها، ولا من يصفها بالرمز وهو يرى أجساد الخلق محشورةً، ولا من يرد النار إلى قلق الضمير وهي أمامه ذات زفيرٍ وشهيق.

لكن اتفاق المعرفة يومئذٍ لا يعني اتفاق المصير؛ لأن الناس سيصلون إلى الحقيقة الواحدة بكتبٍ مختلفة. إنهم يتساوون في المشاهدة، ويفترقون في نتيجة ما صنعوه قبلها. فالمؤمن يرى تصديق وعد ربه، والمنكر يرى بطلان موقفه، والمتردد يرى أن تعليق القرار لم يعلق الحساب، والغافل يرى أن انشغاله لم يكن عذرًا.

إن القيامة لا توحّد الناس على النجاة لمجرد أنها توحدهم على الاعتراف؛ لأن الاعتراف أصبح اضطرارًا. وقد كان موضع الامتحان أن يؤمن الإنسان حين كان يستطيع أن ينكر، وأن يطيع حين كان يستطيع أن يعصي، وأن يجعل خبر الله حاكمًا على هواه قبل أن يصبح المشهد حاكمًا على حواسه.

إن الإيمان بالغيب فعلٌ أخلاقي معرفي؛ فيه ثقةٌ بالله، وتواضعٌ للعقل، واستجابةٌ للإخبار. أما التصديق بعد الرؤية فليس فيه هذه الحرية؛ إذ كيف ينكر الإنسان أرض المحشر وهي تحمله، أو الكتاب وهو في يده، أو الملائكة وهم يحيطون به؟ لقد انتهى النقاش لأن الحقيقة لم تعد موضوعًا أمامه، بل أصبحت العالم الذي هو داخله.

حين تنتهي وظيفة البرهان

في الدنيا يحتاج الإنسان إلى البرهان لأنه لا يشاهد الآخرة؛ فينظر في صدق الوحي، وفي آيات الخلق، وفي إمكان الإعادة، وفي حكمة الله وعدله. أما في الآخرة فلا يحتاج إلى إقامة دليلٍ على البعث، لأن وجوده مبعوثًا هو الدليل؛ ولا إلى برهان على الحساب،

لأن وقوفه بين يدي الله هو المشهد، ولا إلى حجةٍ على بقاء العمل، لأن الكتاب يعرضه عليه.

هناك تنتهي وظيفة البرهان، لا لأن العقل انتهى، بل لأن المشاهدة تجاوزت الحاجة إلى الاستدلال. من يقف تحت المطر لا يحتاج إلى من يبرهن له على نزوله، ومن يرى النهار لا ينتظر حجةً على طلوع الشمس. لكن المشكلة أن البرهان حين ينتهي ينتهي معه زمن الانتفاع به في بناء أصل الموقف، فقد انتقل الإنسان من دار إقامة الحجة إلى دار ظهور النتيجة.

ولذلك لا يكون طلب الرجوع يومئذٍ طلبًا لمزيد من المعرفة، بل طلبًا لاستعادة القدرة على العمل: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾. لقد اكتملت المعرفة: أبصرنا، وسمعنا، وأيقنا. لكنهم لم يقولوا: زدنا دليلًا، بل قالوا: أرجعنا نعمل. أدركوا متأخرين أن وظيفة اليقين في الدنيا كانت أن يصنع العمل، وأن اليقين الذي لا زمن بعده لا يصنع إلا الحسرة.

وهنا تظهر حكمة أن يكون الغيب غيبًا في دار التكليف؛ لأن الإيمان لو كان قائمًا على مشاهدةٍ قاهرة لما تميزت الاستجابة الحرة من الاضطرار. لقد أعطى الله الإنسان من الدلائل ما يكفي لصدق التصديق، وحجب عنه من المشهد ما يبقي للاختيار قيمته. فإذا انتهى الاختيار، رُفع الحجاب كله.

شهادة الجوارح: حين تنكشف الحقيقة من داخل الإنسان

لا تتحول حقيقة الآخرة إلى مشاهدةٍ خارجية فحسب، بل ينكشف للإنسان من نفسه ما كان يظنه محصورًا في صمته ونسيانه. تنطق الجوارح، وتشهد الأرض، وتظهر

النيات والسرائر، ويجد المرء أعماله حاضرة. إن العالم الذي كان يبدو له صامتًا تجاه أفعاله يتحول إلى منظومة شهادة، وكأن الوجود كله كان يحفظ ما ظن أنه مرَّ وانقضى.

يقول تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. لقد كان اللسان في الدنيا أداةً للتبرير والإنكار، يصوغ للإنسان روايةً تحمي صورته؛ فإذا جاء اليوم الذي تظهر فيه الحقيقة، خُتم على الأداة التي اعتادت المراوغة، وتكلمت الجوارح التي باشرت الفعل.

إن شهادة اليد والرجل ليست مجرد إضافة أدلةٍ إلى المحكمة، بل هدمٌ للوهم الذي جعل الإنسان يعتقد أنه يملك قصته لأنه يملك طريقة روايتها. في الآخرة لا يكون هو الراوي الوحيد؛ جسده يروي، والأرض تروي، والكتاب يروي، والملائكة تشهد، ولا تبقى له سلطة انتقاء المقاطع التي توافق صورته.

ويقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾. إن سؤالهم لجلودهم يكشف صدمتهم من سقوط آخر حصون الخصوصية؛ فقد ظنوا أن الجسد أداةٌ مملوكةٌ لهم، فإذا به مخلوقٌ لله، يأمره فينطق بالحقيقة التي حملها.

هنا لا تعود الآخرة حقيقةً خارج الإنسان وحده، بل يصبح الإنسان نفسه وثيقةً عليها؛ يحمل في أعضائه سجل ما أنكره، ويكتشف أن ما فعله في خفاء لم يكن خارج الوجود، بل كان واقعًا في علم الله، محفوظًا إلى يوم الكشف.

الكتاب: الماضي الذي لم يمت

يعيش الإنسان في الدنيا على وهم أن الزمن يبتلع الأفعال، يقول الكلمة ثم يمضي، ويظلم ثم تتغير الأحوال، ويخلو بالمعصية ثم يغادر المكان، ويحسب أن خروج الحادثة من

ذاكرته خروجٌ لها من الحقيقة. لكن يوم القيامة ينكشف أن الماضي لم يمت، وإنما انتقل من المشاهدة إلى الحفظ، وأن الأعمال لم تتلاشَ، بل خرجت من يد الإنسان إلى كتابٍ ينتظره.

يقول تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

تبلغ الآية ذروتها في قوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾؛ فالعمل الذي عُدَّ من الماضي أصبح حاضرًا، وما ظن الإنسان أنه انقضى عاد إليه في صورةٍ لا تقبل الإنكار. لم يجد مجرد وصفٍ بعيد لعمله، بل وجد عمله حاضرًا، وكأن الآخرة تُبطل وهم الزمن الذي جعل الإنسان يظن أن مضي الفعل يعني زوال حقيقته.

إن الكتاب لا يصنع الأعمال يوم القيامة، بل يكشف ما صنعه الإنسان في الدنيا، ولا ينشئ الذنب، بل يحفظه، ولا يخلق الحسنة، بل يظهر وزنها. وكما أن القيامة لا تُنشأ بإيمان الإنسان، فإن كتابه لا يُنشأ بدهشته عند قراءته، لقد كتبه يومًا يومًا، لكنه لم يكن يرى الكتابة.

وهنا تتحول حقيقة الحساب من خبرٍ عام إلى مواجهةٍ شخصية، لم تعد المسألة أن الناس سيحاسبون، بل أن هذا الإنسان يقرأ نفسه، ويرى عمره وقد تجرد من الأعذار التي غطته. لقد كان يستطيع أن يختلف مع المواعظ، لكنه لا يستطيع أن يختلف مع ما صنعت يداه حين يجده حاضرًا.

الميزان: حين تفقد الأشياء أحجامها الزائفة

في الدنيا تكبر الأعمال وتصغر بحسب أعين الناس؛ قد تعظم كلمةٌ لأنها صدرت من صاحب سلطة، ويُهمَل خيرٌ لأنه صدر من مجهول، ويُجمَّل الظلم إذا فعله المنتصر، وتُدفن التضحيات إذا لم تجد من يرويها. إن موازين الأرض تتأثر بالقوة والصورة والدعاية والمصلحة، ولذلك لا تكشف دائمًا القيمة الحقيقية للأشياء.

أما في الآخرة فيوضع الميزان الحق: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾. لا يمنح الميزان القيم حقيقتها يومئذٍ من العدم، بل يكشف الحقيقة التي حجبتها موازين الدنيا. كانت الحسنة عظيمةً وإن استصغرها الناس، وكان الظلم ثقيلًا وإن احتفت به الجماهير، وكانت النية الصادقة ذات وزنٍ وإن لم يطلع عليها أحد.

إن المشاهدة الأخروية لا تكشف وجود الحساب فحسب، بل تكشف الحجم الحقيقي لكل شيء. سيرى الإنسان أن لحظاتٍ ظنها عابرةً كانت أثقل من أعوام، وأن كلمةً نسيها كانت أبقى من مبانٍ شيّدها، وأن دمعةً خفيةً من خشية الله لم تكن صغيرةً، وأن حقًّا استهان به لم يمت.

الآخرة ليست عالمًا يضاف إلى الدنيا، بل العالم الذي تُكشف فيه حقيقة الدنيا نفسها. هناك يُعرف ما كان نصرًا وما كان هزيمة، ومن كان كبيرًا ومن كان متضخم الصورة فقط، وما الذي بقي وما الذي تبخر. وكل ذلك كان حقًّا قبل أن يظهر؛ وإنما أخرت الحكمة يوم الوزن حتى يكتمل العمل.

انكشاف السرائر: حين يسقط الفرق بين الصورة والحقيقة

يستطيع الإنسان في الدنيا أن يصنع صورةً مختلفةً عن باطنه، وأن يختار للناس ما يرونه منه، وأن يخفي دوافعه تحت أقوالٍ جميلة. وقد يبلغ من النجاح في إدارة صورته أن يصدقها هو، وينسى المسافة بين ما يظهر وما يريد. لكن الآخرة ليست محكمة الظاهر وحده؛ إنها اليوم الذي ﴿تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، فتخرج النيات من خفائها، ويُختبر باطن العمل كما اختُبر ظاهره.

إن السريرة اليوم غيبٌ عن الناس، لكنها ليست غيبًا عن الله؛ وظهورها غدًا لا يمنحها حقيقةً جديدة، بل يكشف الحقيقة التي كانت وراء الفعل. عملان متشابهان في الصورة قد يفترقان في الميزان افتراقًا بعيدًا بسبب ما قام في القلب؛ ورجلان قالا الكلمة نفسها، لكن أحدهما أراد بها وجه الله، والآخر أراد وجه الناس.

حين تنكشف السرائر، يعرف الإنسان أن الحقيقة لم تكن يومًا محصورةً فيما استطاع عرضه، وأن ربه لم يكن ينظر إلى الصورة وحدها، وأن المعركة التي خاضها لتحسين رأي الناس لم تغير حقيقة نيته. لقد استطاع أن ينال تصديقهم، لكنه لم يستطع أن يجعل الرياء إخلاصًا، ولا الخيانة أمانةً، ولا طلب السمعة عبادةً لمجرد أن الجمهور صفق له.

وفي ذلك اليوم لا يحتاج الباطن إلى اعتراف صاحبه حتى يظهر؛ فالحقيقة الأخلاقية للعمل مستقلةٌ عن الرواية التي يقدمها الإنسان عنه، كما أن الآخرة مستقلةٌ عن موقفه منها.

الحسرة: معرفة الحقيقة بعد ضياع القدرة

الحسرة الأخروية ليست جهلًا، بل معرفةٌ كاملة جاءت متأخرة. ولو بقي الإنسان جاهلًا لما تحسر بهذا العمق؛ إنما يتألم لأنه يرى بوضوح ما كان يمكن أن يفعله، ويعرف قيمة الوقت بعد أن خرج من يده، ويدرك صدق الخبر بعد أن لم يعد يستطيع الرجوع إلى زمن التصديق النافع.

يقول: ﴿يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾. لم يقل: قدمت في حياتي، بل لحياتي؛ وكأنه اكتشف أن الحياة التي كان يسميها حياةً لم تكن إلا فرصة تقديم، وأن الحياة الكاملة بدأت حيث انتهت فرصة العمل. كان يعد الدنيا أصلًا والآخرة امتدادًا، فإذا به يرى الدنيا مقدمةً قصيرة، والآخرة هي الحياة التي كان ينبغي أن يرسل لها زاده.

ويقول: ﴿يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، و﴿يَالَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾، و﴿يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾. تتعدد الأماني لأن الحقيقة حين تنكشف تعيد تفسير شبكة العلاقات والاختيارات كلها. ما كان صداقةً يظهر أنه إضلال، وما كان حريةً يظهر أنه أسرٌ للهوى، وما كان ذكاءً في الإفلات من التكليف يظهر أنه خسارةٌ للسبيل.

لكن «ليت» لا تعيد الزمن؛ إنها صوت المعرفة حين تنفصل عن الإمكان، وفصاحة العجز بعد أن انتهت فرصة الفعل. وفي هذا تكمن مأساة الإنكار: لم يمنع الحقيقة، بل أجّل اعترافه بها إلى الوقت الذي يصبح فيه الاعتراف عذابًا.

رؤية النار لا تعني أنها وُجدت بالرؤية

سيُعرض الناس على النار، ويرونها، ويسمعون تغيظها وزفيرها، لكن رؤيتهم لا تنشئها؛ كانت حقًّا قبل أن تبلغها الأبصار، وأُعدت قبل أن يقف أهلها على شفيرها.

وكذلك الجنة لا تفتح لحظة وصول المؤمنين إليها لأن رجاءهم خلقها، إنها الدار التي أخبر الله أنه أعدها للمتقين.

إن لفظ أُعدّت وحده يؤكد استقلال المصير عن وعي البشر، فالإعداد سابقٌ على الوصول، والدار مهيأةٌ قبل دخول أهلها. يقول تعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ويقول في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. فالاستعداد البشري يقابل إعداداً إلهيًّا سابقًا، هؤلاء يعدّون أنفسهم للدار، والدار أعدها الله لهم.

وحين يرى المنكر النار لا تتحول من رمزٍ إلى حقيقة، بل ينهار تفسيره الرمزي أمام حقيقتها. وحين يدخل المؤمن الجنة لا يكتشف أن أمله صنع عالمًا، بل يجد أن وعد ربه كان أوسع من أمله وأعظم من خياله. يقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾؛ ينسبون تحقق النعيم إلى صدق وعد الله، لا إلى قوة تصورهم ولا استحقاقهم المجرد.

فالآخرة، في نعيمها وعذابها، ليست إسقاطًا نفسيًّا تكبره المشاعر حتى يصير عالمًا، إنها خلق الله الذي يدخل إليه الناس، ويجد كل فريقٍ حقيقة ما وُعد.

الاعتراف الذي يملأ الوجود

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يحصر الآخرة في زاويةٍ من النقاش، وأن يقول: هذه قضيةٌ دينية لا تعنيني، أو تصورٌ خاص بمن يؤمن به. أما يوم القيامة فلن تبقى زاويةٌ في الوجود خارج دلالتها؛ المكان أخروي، والزمن أخروي، والجسد مبعوث، والناس محشورون، والملائكة حاضرة، والكتاب منشور، والميزان منصوب. تصبح الآخرة هي الواقع الكلي الذي لا يوجد خارجه موضعٌ محايد.

وعندها يظهر بطلان القول إن الآخرة «حقيقة المؤمنين» فقط؛ فالمنكر يوجد فيها كما يوجد المؤمن، ويراها كما يراها، وإن اختلفت حال الرؤية والمآل. لو كانت مجرد معنى ذاتي، لانتهت بانتهاء الذات التي رفضتها؛ لكنها تحيط بالرافض كما تحيط بالمصدق، فتثبت أنها لم تكن جزءًا من عالمه الداخلي، بل كان هو جزءًا من عالمٍ ينتهي إليها.

إن الحقيقة الموضوعية تتميز بأنها لا تسمح لمن ينكرها أن يخرج من آثارها؛ والنار تحرق من أنكر خاصيتها كما تحرق من عرفها، والموت يأخذ من لم يفكر فيه كما يأخذ من استعد، والقيامة تجمع من جحدها كما تجمع من صدق. الاختلاف في المعرفة لا يصنع اختلافًا في أصل الخضوع للواقع.

المؤمن يرى ما كان يعرفه

لا تكون القيامة للمؤمن انتقالًا من الوهم إلى الحقيقة، بل من اليقين بالخبر إلى تصديق العيان. يرى ما كان يعرف أن سيراه، ويجد ما كان يرجو، ويشهد أن الله صدق وعده. لذلك تحمل مشاهد الآخرة للمؤمن معنى الأنس بالحق الذي انتظره، وإن كان اليوم عظيمًا وأهواله شديدة؛ فليس أمام حقيقةٍ غريبةٍ هدمت تصوره، بل أمام حقيقةٍ بنى عليها حياته وجاءت الآن لتثبت أن ثقته لم تضع.

إنه لم يكن يعلم الكيفية كلها، ولم يكن خياله يحيط بالمشهد، لكنه كان يعرف الأصل: أن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن لقاء الله حق. فلما كُشف الغطاء، لم تتغير العقيدة، بل اتسعت المعرفة؛ ولم ينقض العيان الخبر، بل حققه.

وهذه هي ثمرة الإيمان بالغيب: أن يصل الإنسان إلى الحقيقة فلا تكون صدمةً تهدم معنى حياته، بل وفاءً بوعدٍ عاش عليه. لقد كان يرفض الظلم لأنه يعلم بهذا اليوم، ويصبر لأنه يرجو هذا اليوم، ويتوب لأنه يخاف هذا اليوم؛ فإذا جاء وجد أن كل لحظةٍ قاوم فيها سلطان العاجل كانت إعدادًا صادقًا للواقع الأبقى.

أما المنكر فيرى المشهد نفسه، لكن الرؤية تهدم نظامه كله؛ تبيّن أن الموت لم يكن فناءً، وأن الحس لم يكن حد الوجود، وأن الحرية لم تكن انفلاتًا من العاقبة، وأن الزمن لم يبتلع الأعمال. لا يتلقى حقيقةً واحدةً جديدةً فقط، بل تنهار أمامه شبكة المعاني التي بنى بها حياته.

المنكر يرى ما كان يسير إليه

المفارقة أن المنكر لم يكن ساكنًا بعيدًا عن الآخرة، بل كان يتحرك إليها في كل لحظة. كان جسده يستهلك أجله، وأعماله تُكتب، والليل والنهار يحملانه نحو الموعد، لكنه كان يفسر حركته داخل حدود الدنيا وحدها. فإذا قامت الساعة، لم ينتقل إلى طريقٍ جديد، بل رأى نهاية الطريق الذي كان عليه منذ البداية.

إنه كمن سار في قطارٍ ينكر المحطة الأخيرة؛ إنكاره لا يغيّر اتجاه القطار، لكنه يجعله عاجزًا عن إعداد نفسه للنزول. وعندما تظهر المحطة لا يستطيع أن يقول إنها وُجدت لأنه رآها؛ لقد كان القطار يتجه إليها وهو يجادل في وجودها.

وهكذا سيعرف المنكر أن حياته كلها كانت أخروية الاتجاه، وإن كانت دنيوية المشهد؛ فكل فعلٍ كان يتجاوز لحظته إلى الحساب، وكل حقٍ كان يرسل أثره إلى

الميزان، وكل تكذيبٍ كان يُكتب في الكتاب. لم تكن الآخرة غائبةً عن حياته، بل كان وعيه غائبًا عن امتداد حياته إليها.

حين ينتهي زمن التسمية ويبدأ زمن الحقيقة

في الدنيا يمكن للفلاسفة والمفكرين والناس أن يختلفوا في أسماء الموت وما بعده، وأن يصوغوا تصوراتٍ متعددة، وأن يعيدوا تفسير النصوص؛ أما في الآخرة فتنتهي سلطة التسمية البشرية، لأن الحقيقة تقدم نفسها باسمها الذي سماها الله به. لا يستطيع أحد أن يسمي الحشر «استمرارًا رمزيًّا» وهو قائمٌ بجسده، ولا أن يسمي الحساب «تأنيب الضمير» والكتاب في يده، ولا أن يسمي النار «قلقًا داخليًّا» وهي أمامه.

هناك يسترد اللفظ القرآني تمام مدلوله، وتسقط المسافات التي صنعتها التأويلات. يكون البعث بعثًا، والحشر حشرًا، والميزان ميزانًا، والصراط صراطًا، والجنة جنةً، والنار نارًا. لقد كانت اللغة واضحة، لكن النفس هي التي كانت تهرب من وضوحها؛ فإذا انعدم الهرب، ظهرت مطابقة الاسم للمسمّى.

إن الرمزية تستطيع أن تعمل ما دام الموضوع غائبًا عن الحس، لكنها تنهار حين يحضر المسمّى. وحضور الآخرة هو الحكم الأخير على كل قراءةٍ أفرغتها من واقعيتها.

من رحمة الخبر أن يسبق المشهد

لو لم يخبر الله الإنسان بالآخرة حتى يراها، لكانت المشاهدة مفاجأةً بلا إنذار، ولما كان أمامه زمنٌ يتخذ فيه موقفًا واعيًا. لكن رحمة الله جعلت الخبر يسبق المشهد، والوصف يسبق الوصول، والإنذار يسبق الجزاء. أخبر الإنسان بما يكفيه للنجاة، ثم أمهله، ثم كرر التذكير، ثم فتح له باب التوبة ما دام في زمن الغيب.

فكل آيةٍ عن الآخرة ليست مجرد معلومة، بل فرصةٌ لتقديم المشاهدة إلى القلب قبل أن تأتي إلى العين؛ أن يرى الإنسان بعين اليقين ما لم تره عين الرأس، فيعيد بناء حياته. والوحي في هذا المعنى يمنح الإنسان إمكانيةً عظيمة: أن يعرف الحقيقة دون أن يُقهر بها، وأن يستعد لها قبل أن تحيط به.

الإيمان بالغيب ليس نقصًا اضطر إليه الإنسان لأن الله حجب عنه البرهان، بل مقامٌ من الثقة والحرية؛ فقد أعطاه الله آيات الصدق، ثم ترك له مساحة الاستجابة. فإذا طالب بأن يرى كل شيءٍ قبل أن يؤمن، فهو يطلب إلغاء المساحة التي يصبح فيها الإيمان إيمانًا، وتحويل التكليف إلى اضطرار.

وحين تأتي المشاهدة، سيتبين أن الخبر كان رحمةً كاملة؛ لأنه كان يتيح تغيير المصير، بينما لا تتيح الرؤية الأخيرة إلا معرفة المصير.

لن تسأل الحقيقة يومئذٍ: هل تؤمن بي؟

حين تقوم القيامة، لن يُسأل الإنسان هل يعتقد أنها موجودة؛ فقد صار السؤال بلا معنى. إنما يُسأل عما فعل حين كان يستطيع أن يؤمن أو يكفر، وما قدّم حين كان الخبر غيبًا، وكيف استعمل المهلة. سيكون وجوده في المشهد إجابةً نهائيةً عن سؤال الوقوع، ويبقى السؤال الأخلاقي: بأي كتابٍ جئت؟

وهذا يكشف الفرق بين العقيدة في الدنيا والحقيقة في الآخرة؛ العقيدة هي موقف الإنسان المعرفي والقلبي من الخبر قبل مشاهدته، أما الآخرة فهي الواقع الذي لا يتوقف على ذلك الموقف. فإذا انكشف الواقع، انتهى إمكان العقيدة بمعنى الإيمان بالغيب، وبدأ الجزاء على ما أنتجته أو لم تنتجه في زمنها.

لا تقول النار لمن يراها: أقنعني بوجودي، ولا تقول الجنة لأهلها: أنشأني رجاؤكم، ولا يسأل الميزان الناس هل يتفقون مع معاييره. لقد انتهى زمن الآراء، وبدأ زمن الحق الذي لا تفاوض فيه.

الحقيقة التي كانت قادمة صارت محيطة

في الدنيا يقال: الآخرة قادمة، لأن الإنسان ينظر إليها من داخل الزمن؛ أما يوم القيامة فلا تعود أمامه فقط، بل تحيط به. ليس له ماضٍ يستطيع الرجوع إليه ليغير العمل، ولا مستقبلٌ مجهولٌ يهرب إليه من النتيجة؛ إنه في دار الجزاء التي خرجت من نظام التجربة المؤقتة إلى نظام الاستقرار.

وهنا يفهم معنى أن الآخرة دار؛ ليست لحظة رؤيةٍ عابرةً ثم يعود الإنسان إلى دنياه، بل عالمًا يقيم فيه، وحقيقةً تستوعب وجوده كله. المشاهدة لا تمر أمام عينيه ثم تختفي؛ لقد دخل في المَشهود، وصار جزءًا من الواقع الذي كان ينكره أو يؤمن به.

إن الحقيقة الغيبية حين تصير مشاهدةً لا تنتهي مهمتها عند إثبات أن الوحي كان صادقًا؛ بل تنقل الإنسان إلى الطور الذي أخبر عنه الوحي. فالقيامة ليست برهانًا بصريًّا ثم ينفض المجلس، بل انفتاح الحياة الباقية بكل ما فيها من حسابٍ ومآل.

خلاصة الفصل: ستنتهي حرية الإنكار ولا تنتهي الحقيقة

يستطيع الإنسان اليوم أن ينكر الآخرة لأن الغطاء ما يزال قائمًا، لكنه لا يستطيع أن يحتفظ بإنكاره إلى الأبد؛ فالإنكار ممكنٌ في زمن الغيب، مستحيلٌ في زمن المشاهدة. وما سيُنهيه ليس اقتناعًا اختياريًّا متأخرًا، بل حضور الحقيقة ذاتها.

وعندئذٍ يتبين أن الآخرة لم تكن ضعيفةً لأنها احتملت الإنكار، وإنما كان احتمالها لإنكار البشر جزءًا من إمهالهم؛ ولم تكن غائبةً لأنها غير موجودة، بل لأنها أُخرت عن الحس لحكمة التكليف؛ ولم يكن الله محتاجًا إلى أن يريهم إياها كي تكون حقًّا، بل كانوا محتاجين إلى تصديق خبره كي ينجوا حين يرونها.

فالتحول يوم القيامة ليس من «اللاحقيقة» إلى الحقيقة، وإنما من الحقيقة المخبر عنها إلى الحقيقة المشهودة؛ وليس من وجودٍ صنعه الإيمان إلى وجودٍ ظهر للعيان، بل من حجابٍ سمح بالاختيار إلى كشفٍ أنهى زمن الاختيار.

وستنتهي يومئذٍ كل المواقف النظرية أمام الواقع الواحد: سيعلم المؤمن أنه لم يؤمن بوهم، وسيعلم المنكر أنه لم ينكر فراغًا، وسيعلم الغافل أن الحقيقة لم تكن غافلةً عنه حين غفل عنها.

لقد كانت الآخرة واقعةً في وعد الله، ثم صارت واقعةً في حس الإنسان؛ وبين الوقوعين لم تتغير هي، وإنما تغير الإنسان: كان يسمع، فأصبح يرى؛ وكان يعمل، فأصبح يُحاسب؛ وكان يستطيع الرجوع، فأصبح يتمنى الرجوع.

وهذه هي الكلمة الحاسمة:

إذا تحولت الآخرة من غيبٍ إلى مشاهدة، فلن تزداد حقيقةً، وإنما سيفقد الإنسان آخر قدرةٍ على إنكار حقيقتها، وسيكتشف أن الإيمان لم يكن مطلوبًا ليجعلها تقع، بل ليجعله مستعدًّا حين تقع.

الفصل السابع

الآخرة آتيةٌ بالإنسان، آمن أم لم يؤمن

لا يسير المؤمن وحده إلى الآخرة لأنه آمن بها، ولا يبقى المنكر خارج طريقها لأنه رفضها؛ فالآخرة ليست وجهةً اختياريةً يذهب إليها من اعتقد بوجودها، ويتخلف عنها من لم يقتنع بها، بل هي المصير العام الذي يمضي إليه الإنسان بحكم كونه مخلوقًا لله، داخلًا في ملكه، واقعًا تحت سنن الحياة والموت والبعث. إن الناس يختلفون في الطريق الذي يسلكونه إليها، وفي العمل الذي يحملونه، وفي الوجه الذي يلقونها به، لكنهم لا يختلفون في أصل الوصول.

وهذه الحقيقة تنزع عن الإيمان بالآخرة أي تصورٍ يجعلها شأنًا خاصًّا بالمتدينين، كأن المؤمن قد اختار لنفسه مستقبلًا أخرويًّا، بينما اختار غيره أن تنتهي قصته عند القبر. لا يملك أحدٌ أن يختار نهايةً خارج ما قضاه الله؛ لأن الموت ليس بابًا إلى الاحتمالات التي تصنعها المعتقدات، بل بابٌ واحد يخرج منه الناس من زمن العمل، ثم يُبعثون جميعًا في الموعد الذي حدده رب العالمين.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾. لم يفرّق الخطاب في أصل الجمع بين من صدق ومن كذب، ولا بين من عرف ومن غفل، ولا بين أمةٍ حملت كتابًا وأمةٍ انقطعت عنها الذكرى؛ فالأولون والآخرون جميعًا يتحركون نحو ميقاتٍ واحد، معلومٍ عند الله وإن غاب توقيته عن البشر.

إن التـاريخ، على امتـداده، ليس طرقًـا متفرقـةً تذهب كل واحدة منهـا إلى عدمها الخاص، بل نهرٌ بشري هائل يصب في ساحة الحشر؛ تتباعد منابعه وأزمنته ولغاته، لكنها تجتمع عند المصب الأخير. كل قرنٍ ظن أهله أنهم حاضر العالم ونهايته صار طبقةً في ماضيه، وكل جيلٍ ملأ الأرض حركةً وأصواتًا دخل القبور، لكنه لم يخرج من القصة؛ فهو محفوظٌ للنداء الذي يعيد الجميع.

لا أحد يملك حق الغياب

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يغيب عن مجلسٍ لا يريده، وأن يعتذر عن موعدٍ لا يناسبه، وأن يهاجر من دولةٍ إلى أخرى، وأن يتخفى من سلطة البشر إذا وجد إلى ذلك سبيلًا. لكن يوم القيامة ليس مجلسًا اختياريًّا، ولا موعدًا اجتماعيًّا، ولا محكمةً محدودة السلطان؛ إنه يوم الملك الذي لا توجد أرضٌ خارج أرضه، ولا جهةٌ لا يبلغها أمره، ولا مخلوقٌ يستطيع أن يخرج من علمه وقدرته.

يقول تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾. إن التعبير بـ ﴿كُلُّهُمْ﴾ يهدم وهم الاستثناء، فلا مكانةً دنيويةً تمنح أحدًا حق الغياب، ولا إنكارًا يعفي صاحبه من الحضور، ولا موتًا قديمًا يجعل صاحبه منسيًّا، ولا تفتتًا في الأرض يخرج الجسد من القدرة التي أحصته.

لقد أحصاهم الله قبل أن يأتوا، وعدهم عدًّا قبل أن يجتمعوا، فلا يضيع في الحشر إنسانٌ مجهول، ولا يختلط فردٌ بآخر، ولا تحجب كثرة الخلق علم الله عن أصغرهم. كل

واحدٍ يأتي فردًا، منزوعًا من الجماعة التي كان يختبئ فيها، ومن النسب الذي كان يرفعه، ومن القوة التي كان يستعين بها، ومن الصورة التي صنعها بين الناس.

إن الآخرة لا تسمح للإنسان أن يذوب في الكثرة كي ينجو من مسؤوليته؛ فمع أن الحشر يجمع الأولين والآخرين، فإن الحساب يعيد كل نفس إلى فرديتها. يأتي الجميع، لكن كل واحدٍ يحمل كتابه؛ تجتمع الأجساد، وتنفرد التبعات؛ يسقط التاريخ بوصفه ستارًا جماعيًّا، وتبقى النفس أمام ما كسبت.

نحن لا ننتظر الآخرة فقط؛ إنها تنتظرنا

حين نتحدث عن الآخرة بوصفها حدثًا قادمًا، قد يتشكل في الوعي أنها شيءٌ بعيدٌ ساكنٌ في آخر الزمان، بينما نقيم نحن في حاضرٍ ثابت لا يتحرك. لكن الإنسان لا يقف في مكانه؛ عمره ينساب في اتجاهها، وجسده يستهلك المسافة، وأيامه تضعه أقرب إلى موته، والموت ينقله من دار العمل إلى ما يليها.

فالآخرة ليست وحدها التي تأتي؛ نحن أيضًا نأتيها. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾. إن الآية تصف الحياة كلها بالحركة إلى الله؛ فالإنسان كادحٌ في كل أحواله، سواء استحضر وجهة الكدح أم غفل عنها. يمضي في أعماله ومشاريعه وصراعاته، ويحسب أنه يتحرك داخل الدنيا وحدها، لكن الحركة الأعمق تحمل وجوده كله إلى اللقاء.

ليس قوله: ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ احتمالًا متعلقًا بنجاح الإنسان في الوصول، بل نتيجةً لازمةً للكدح؛ فهو سائرٌ إلى ربه لا محالة. قد يختلف المفسرون في عود الضمير إلى الرب أو

العمل، وكلا المعنيين يلتقيان في حقيقةٍ واحدة: الإنسان ملاقٍ ربه وملاقٍ ما عمل. لا يستطيع أن يترك عمله وراءه ثم يصل خاليًا منه؛ فما صنعه في الطريق يسبقه إلى الغاية.

إننا لا نقف بعيدًا عن الآخرة نراقب إمكان مجيئها، بل نتحرك داخل الزمن الذي يطوينا إليها. وكل سؤالٍ عن بُعدها ينبغي أن يسبقه سؤالٌ عن سرعة انقضاء أعمارنا؛ فقد تكون القيامة في حساب الكون بعيدةً، لكن موت الإنسان أقرب من كثيرٍ مما يخطط له، وإذا مات انقطعت قدرته على تعديل المسار.

الطريق لا يتغير بجهل المسافر

قد يجهل المسافر نهاية الطريق، لكن جهله لا يجعل الطريق بلا نهاية؛ وقد يحمل خريطةً خاطئة، لكن الأرض لا تعيد تشكيل تضاريسها لتوافق خريطته. إنه الذي سيدفع ثمن الخطأ حين يصل إلى موضعٍ لم يحسب له حسابًا.

والإنسان في الدنيا مسافرٌ بالضرورة؛ لا يستطيع تثبيت لحظةٍ واحدة، ولا الاحتفاظ بيومٍ مضى، ولا منع جسده من التقدم في العمر. حتى قراره بألا يفكر في المصير لا يوقف الرحلة؛ فالغفلة موقفٌ داخل الحركة، لا خروجٌ منها.

إن المؤمن يحمل خريطة الوحي، فيعرف أن الدنيا ممر، وأن الموت انتقال، وأن وراء القبر بعثًا، وأن بعد البعث حسابًا ومآلًا. أما المنكر فيمزق الخريطة، لكنه يواصل السير فوق الأرض نفسها، باتجاه النهاية نفسها. لقد تخلص من الورقة، لا من الطريق؛ وأراح ذهنه من التحذير، لا وجوده من الخطر.

وهذه هي مأساة الإنكار: يمنح صاحبه شعورًا بالتحرر من الحقيقة، بينما لا يمنحه تحررًا حقيقيًّا منها. يظن أنه خرج من فكرة الآخرة، لكنه لم يخرج من الشيخوخة

والموت والبعث، ويظن أن عدم التفكير في الحساب يعفيه من ثقله، مع أن ما يفعله في زمن الغفلة يُكتب كما يُكتب في زمن التذكر.

إن الطريق لا يسأل المسافر عن تفسيره له؛ يوصله إلى نهايته وفق طبيعته، لا وفق تصوره.

المؤمن والمنكر يحملان المستقبل نفسه على صورتين مختلفتين

المؤمن والمنكر لا يعيشان في كونين منفصلين؛ كلاهما تحت السماء نفسها، ويمشي على الأرض نفسها، ويخضع للموت نفسه، وسيقوم للبعث نفسه. لكن المستقبل الواحد يحضر في وعي كل واحدٍ منهما على صورة مختلفة: عند المؤمن وعدٌ ووعيدٌ يوجهان الحاضر، وعند المنكر فراغٌ يتخيله بعد الموت، أو سؤالٌ يدفعه إلى الهامش كيلا يثقل عليه.

هذه الصورة الذهنية المختلفة لا تقسم المصير إلى مصيرين، لكنها تقسم السلوك إلى طريقين. المؤمن الذي استيقن الآخرة لا يضيف إلى وجودها شيئًا، لكنه يضيف إلى حاضره نورها؛ والمنكر لا ينتقص من وقوعها شيئًا، لكنه ينتزع من حاضره أثرها. وحين يلتقيان في يومٍ واحد، ينكشف أن الاختلاف لم يكن في المستقبل، بل في كيفية بناء كل واحدٍ لماضيه قبل الوصول إليه.

إن الآخرة واحدة، لكن المؤمن يستقبلها بوصفها تحققًا، والمنكر يستقبلها بوصفها انكشافًا. هذا يقول بقلبه: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون؛ وذاك يكتشف أن ما سماه وهمًا كان الحقيقة التي أهدر عمره في الهرب منها.

لا تختلف النار باختلاف موقف من يقف أمامها، ولا الجنة تتبدل بحسب مقدار تصورات الواصلين إليها؛ إنما يختلف الناس في الاستحقاق والرحمة والمآل. الحقيقة ثابتة، لكن علاقتها بكل إنسان تتشكل بما حمله إليها.

من القبور يخرج المختلفون إلى الحقيقة الواحدة

يصور القرآن خروج الناس من القبور تصويرًا يقطع كل صلةٍ بوهم الفناء النهائي: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾، ويقول: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾.

إن القبور التي بدت في الدنيا نهاياتٍ مغلقة تتحول إلى أبواب خروج؛ والأجساد التي سكنت طويلًا تنهض لأمر الله؛ والأجيال التي فصلت بينها آلاف السنين تجد نفسها في لحظة جمعٍ واحدة. لقد اختلفت أزمنتهم في الدخول إلى الأرض، لكن النداء يجمعهم في الخروج منها.

لن يسأل القبر صاحبه إن كان يؤمن بالبعث قبل أن يخرجه، ولن يعجز النداء عن المنكر لأنه لم يتوقعه. إن الاستجابة هنا ليست طاعةً اختيارية، بل خضوعٌ كوني لأمر الله؛ كما دخل الإنسان الحياة الأولى دون أن يختار قوانينها، يدخل الحياة الأخرى حين يأمر الله.

يقول تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾. تختصر الآية المسافة التي ضخّمها الاستبعاد البشري: زجرةٌ واحدة، فإذا الأموات ظاهرون على وجه الأرض. ما كان يبدو للعقل الغافل مشروعًا مستحيلًا لإعادة مليارات البشر لا يحتاج في قدرة الله إلا إلى أمرٍ واحد.

إن صعوبة التصور تقع في الإنسان، لا في الفعل الإلهي؛ وكثرة الخلق لا تربك القدرة التي أوجدت كل واحدٍ منهم أول مرة.

لا يضيع من مات بعيدًا ولا من مُحي أثره

قد يظن الإنسان أن البعث مفهومٌ لمن بقي له قبرٌ معروف وعظامٌ محفوظة، ثم يسأل عن الذي احترق، أو غرق، أو أكلته الأرض، أو تفرقت أجزاؤه في جهات العالم. لكن السؤال ينشأ من قياس علم الله على علم البشر؛ فنحن نحتاج إلى أثرٍ نتتبعه، وإلى موضعٍ نبحث فيه، أما الله فلا يضيع من علمه شيء، ولا تختلط عليه ذرةٌ بذرة، ولا يحتاج إلى بقايا ظاهرةٍ كي يعيد خلق من خلقه أول مرة.

يقول تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾. لم يقل إن الأرض لا تنقص منهم، بل قرر علمه بما تنقص؛ فالتحلل واقع، لكن العلم محيط، والكتاب حفيظ. لا تعارض بين فناء الصورة الدنيوية وقدرة الله على الإعادة؛ لأن الذي يحفظ الهوية ليس بقاء الجسد خارج التغير، بل علم الخالق الذي لا ينسى.

إن الأرض لا تملك ما تأخذ من الأجساد ملكًا يخرجها من سلطان الله؛ فهي والأجساد والذرات كلها خلقه. وإذا أمرها أن تخرج أثقالها أخرجت، وإذا شاء أن يعيد الإنسان أعاده، لا يحتاج إلى إذن المادة ولا إلى تعاون الزمن.

فالذي اختفى أثره من ذاكرة البشر لم يختفِ من علم الله، والذي مات مجهولًا لم يصبح مجهولًا عند ربه، والذي لم يجد قبرًا يزوره أهله له موضعٌ محفوظ في الإحصاء الإلهي. وهذا من تمام العدل: لا تُفقد نفسٌ لأن التاريخ لم يسجلها، ولا ينجو ظالمٌ لأن جريمته دُفنت مع ضحاياه.

الحشر لا يعترف بالامتيازات

في الدنيا يستطيع المال أن يفتح الأبواب، والسلطة أن تؤخر المحاكمة، والنسب أن يصنع الهيبة، والشهرة أن تعيد كتابة الأخطاء. لكن الحشر يجرد الإنسان من هذه الامتيازات، فلا يأتي الملك بعرشه، ولا الغني بخزائنه، ولا المتبوع بجماهيره، ولا صاحب الاسم الكبير بتاريخ يفرضه على الميزان. يأتي الجميع كما خرجوا أول مرة: أفرادًا لا يحملون إلا ما جعل الله له وزنًا.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾. إن العبارة تعيد الإنسان إلى حقيقة الملكية: ما كان في يده تخويلٌ مؤقت، لا جزءًا من ذاته. تركه وراءه، وجاء وحده؛ فلم يستطع المال أن يعبر معه، ولا المنصب أن يبقى اسمه، ولا الجماعة أن تتحمل عنه.

إن الآخرة لا تأتي بالإنسان كما قدّم نفسه للناس، بل كما هو في علم الله؛ لا تحمل صورته الاجتماعية، بل حقيقته الأخلاقية؛ لا تسأله كم كان يملك، بل ماذا فعل بما مُلّك؛ ولا كم تبعه الناس، بل إلى أين قادهم؛ ولا كم علا اسمه، بل ما وزن عمله.

والمؤمن والمنكر في أصل هذا التجريد سواء؛ كلاهما يترك الدنيا، لكن المؤمن كان يعلم أنها عاريةٌ مستردة، أما المنكر فقد يفاجأ بأن ما بناه بوصفه هويةً نهائيةً لم يستطع أن يعبر معه حدود الموت.

الآخرة لا تأتي بعد انقطاع الصلة بالدنيا، بل تحمل نتائجها

قد يوحي التعبير عن الآخرة بأنها «حياة أخرى» بأنها منفصلةٌ تمامًا عن الدنيا، كأن الإنسان يخرج من قصةٍ ويدخل قصةً لا علاقة لها بالأولى. لكن الآخرة، وإن كانت

دارًا مختلفةً في قوانينها، تحمل نتائج الدنيا كلها؛ فالعمل هناك لا يبدأ، وإنما يظهر، والجزاء لا ينشأ بلا سبب، وإنما يكشف أثر ما قدم الإنسان.

إن الدنيا زمن الزرع، والآخرة زمن ظهور الثمر؛ ولا يعني اختلاف الزمنين انقطاع الصلة بينهما. كل بذرةٍ أخلاقية زرعها الإنسان هنا تمتد إلى هناك؛ الصدق، والظلم، والرحمة، والخيانة، والإيمان، والكفر، والنية، والكلمة. ما يبدو حدثًا صغيرًا داخل يومٍ عابر قد يصبح عنصرًا حاسمًا في المصير الأبدي.

فالآخرة آتيةٌ بالإنسان بما صنع، لا بجسده وحده. يُبعث الجسد، وتُبعث معه القصة؛ يعود الشخص، وتعود إليه أعماله؛ يخرج من القبر، ولا يخرج من مسؤوليته. لو كان البعث إعادةً للأجساد دون الأعمال لكان خلقًا جديدًا مقطوعًا عن التكليف، لكن الحساب يثبت وحدة الشخص عبر المرحلتين: هذا هو الذي فعل، وهذا هو الذي يلقى نتيجة فعله.

ومن هنا تكون الآخرة أصدق مستقبلٍ للدنيا؛ لأنها لا تلغي ما كان، بل تظهر حقيقته. ليست مهربًا من التاريخ، بل محكمته الأخيرة؛ ولا قطيعةً مع العمر، بل قراءته الكاملة بعد انتهاء كتابته.

كل إنسان يصنع كيفية الوصول لا أصل الوصول

لا يملك الإنسان أن يقرر إن كان سيصل إلى الآخرة، لكنه يشارك كل يومٍ في تقرير كيفية وصوله. هناك فرقٌ بين المصير العام الذي لا اختيار فيه، والمآل الخاص الذي يتعلق بالإيمان والعمل ورحمة الله. الجميع مبعوثون، لكن ليس الجميع آمنين؛

والجميع موقوفون، لكن ليست الكتب سواء، والجميع يرون الحقيقة، لكن لا تقع عليهم رؤيتها بالمعنى نفسه.

إن هذا الفرق هو موضع التكليف كله. لو كان الإنسان يملك إلغاء الوصول، لصار الإنكار طريقًا للنجاة من الحساب، ولو كان الوصول وحده كافيًا للنجاة، لما كان للعمل معنى. لكن الله جعل أصل الرجوع قضاءً، وجعل حال الرجوع متعلقةً بما قدّم العبد.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. لا يذهب أحدٌ إلى الآخرة خاليًا، حتى مثقال الذرة يجد طريقه إلى الرؤية. والعمل الذي لم يمنحه صاحبه وزنًا في الدنيا يعرض عليه بوزنه الحقيقي.

إن الله لم يمنح الإنسان سلطةً على وجود اليوم الآخر، لكنه منحه زمنًا يختار فيه ما سيراه هناك. وهذه الحرية المحدودة أعظم جديةً من وهم الحرية المطلقة؛ لأن كل اختيارٍ يصير جزءًا من الأبد.

«إلى ربك الرجعى»: الاتجاه الذي لا ينحرف

يكرر القرآن رد الإنسان إلى حقيقة الرجوع: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾، و﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، و﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. إن تكرار الجهة يحرر الإنسان من وهم التيه المفتوح؛ الوجود لا يسير بلا مقصد، والموت لا يقذف البشر في فراغ، والزمن لا يستهلكهم ثم يمحوهم. هناك رجعى ومرجع، والاتجاه محددٌ مهما تعددت الطرق.

ولفظ الرجوع لا يعني أن الإنسان كان في الآخرة بالصورة نفسها ثم عاد إليها، بل يدل على عودته إلى حكم الله وظهور ملكه وقضائه على وجهٍ لا يبقى معه لأوهام

الاستقلال موضع. لقد كان في الدنيا تحت ملك الله أيضًا، لكنه استطاع أن يعصي، وأن يتوهم أنه يملك نفسه، وأن يرى للأسباب سلطانًا مستقلًّا، أما في الآخرة فينكشف الملك الذي لم يكن غائبًا، وتسقط دعاوى الاستقلال.

يقول تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. لم يبدأ ملك الله في ذلك اليوم، لكنه ظهر ظهورًا لا تنازعه فيه صورة ملكٍ بشري. كانت الممالك كلها في الدنيا داخل ملكه، لكن الحجاب بالأسباب سمح للناس أن يتوهموا أنهم يملكون، فإذا جاءت الآخرة لم يكتسب الله ملكًا جديدًا، بل انكشفت الحقيقة القديمة: الملك له وحده.

وكما لا يبدأ ملك الله يوم القيامة، لا تبدأ حقيقة الرجوع حين يشعر الإنسان بها، كان راجعًا في كل لحظة، لكنه لم يكن يرى اتجاهه.

الموت لا يحرر المنكر من الحقيقة

قد يبني إنكار الآخرة طمأنينته على أن الموت سيطفئ الوعي، وينهي الشخص، ويمحو كل سؤال، فيتصور المنكر أن القبر هو المنطقة التي يتعذر على الحساب عبورها. لكن الموت لا يملك هذه السيادة، إنه انتقالٌ قضاه الله، لا إلهٌ للفناء يستطيع أن يحمي الإنسان من خالقه.

إن الذي أمات هو الذي يحيي، والذي قبض الروح هو الذي يعيدها، والذي أنهى زمن العمل هو الذي يبدأ زمن الجزاء. ليس الموت خصمًا للبعث، بل مرحلةٌ في نظامه، ولا يقف القبر في وجه القيامة، بل ينتظر الأمر الذي يفتحه.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾. وضع الموت والبعث في سلسلةٍ واحدة؛ فلا الموت نهايةٌ مطلقة، ولا البعث استثناءٌ يعترض النظام، بل كلاهما طورٌ من أطوار الوجود الذي قدّره الله للإنسان.

إن المنكر حين يطلب من الموت أن يريحه من الحساب يطلب من مخلوقٍ أن يحميه من أمر خالقه، والموت نفسه لا يملك أن يتقدم أو يتأخر عن الأجل، فكيف يملك أن يمنع ما بعده؟

لا يستطيع التاريخ أن يحتفظ بأحد

يولد الإنسان داخل عصرٍ فيظن أن عصره هو العالم، ويتشكل وعيه بلغته وثقافته وصراعاته، وقد يتخذ من أفكار زمانه مرجعيةً نهائيةً يحاكم بها كل شيء. لكنه سرعان ما يغادر، ويأتي عصرٌ جديد ينظر إلى كثيرٍ مما كان يقينيًّا عنده بوصفه صفحةً من الماضي. إن التاريخ لا يمنح أحدًا إقامةً دائمة، مهما كان حضوره عظيمًا.

غير أن خروج الإنسان من التاريخ لا يعني خروجه من الوجود؛ فهو يغادر ذاكرة الأحياء شيئًا فشيئًا، لكن لا يغادر علم الله. قد يُنسى اسمه، وتزول آثاره، وتتغير اللغة التي كان يتحدث بها، لكنه يبقى محسوبًا في الجمع الآتي.

إن الآخرة هي الموعد الذي يستعيد فيه التاريخ جميع من فقدهم، لا باعتبارهم ذكرياتٍ في أرشيف، بل أشخاصًا قائمين. الأولون ليسوا أقل حقيقةً لأننا لا نعرف أسماءهم، والآخرون ليسوا أبعد عن الحساب لأنهم لم يولدوا بعد. علم الله يجمع ما يفرقه الزمن، والبعث يعيد إلى الحضور من جعلهم التاريخ ماضيًا.

وهذا ما يجعل الآخرة حقيقةً تتجاوز الأزمنة والثقافات، فلا يملك عصرٌ أن يلغيها لأنه استغنى عنها في خطابه، ولا جيلٌ أن يضع نفسه خارجها لأنه بلغ درجةً من التقدم المادي. كل تقدمٍ يحدث داخل زمن الدنيا، وكل حضارةٍ مهما عظمت تحمل أبناءها إلى الموت، ولا توجد تقنيةٌ تعيد كتابة الحكم الإلهي: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

من لم يجعل الآخرة غايته لن يمنعها من أن تكون نهايته

قد يعيش المؤمن متوجهًا إلى الآخرة، يجعل رضوان الله غايته، ويزن الدنيا بميزان ما بعد الموت. وقد يعيش آخر لا يفكر فيها قط، يجعل الثروة أو الشهرة أو اللذة أو القوة غايته القصوى. لكن اختلاف الغايات الشخصية لا يغير النهاية الكونية؛ فالذي لم يجعل الآخرة غايته ستظل نهايته، والذي لم يسر إليها بقصده سيسير إليها بعمره.

وهنا يبلغ خداع الدنيا ذروته: تتيح للإنسان أن يختار غايةً قريبة، وتملأ عينه بها حتى يظن أن الوصول إليها هو تمام القصة. يجمع، وينافس، وينتصر، ثم يأتي الموت فيكشف أن كل تلك الغايات كانت محطاتٍ داخل الطريق، لا نهايته.

إن الإنسان يستطيع أن يجعل من شيءٍ صغير معنى حياته، لكنه لا يستطيع أن يجعله معنى الوجود كله؛ يستطيع أن يقنع نفسه بأن نجاحًا دنيويًّا يكفيه، لكن النجاح لا يوقف أجله، ولا يعفيه من السؤال عن مصدره ووجهته وما فعل. وقد يحقق كل ما أراد، ثم يصل إلى الآخرة فيكتشف أن ما أمضى عمره فيه لم يكن مما يبقى.

فالآخرة لا تحتاج إلى أن تكون غاية الإنسان الاختيارية كي تكون نهايته الحتمية؛ وإنما الحكمة أن يطابق غايته مع نهايته، فيسير بقلبه إلى الجهة التي يسير إليها وجوده كله.

القادم لا يحتاج إلى تصديق المسافر

إن القطار لا يحتاج إلى إيمان ركابه بالمحطة حتى يصل، والليل لا يحتاج إلى تصديق الناس بالفجر حتى ينقضي، والأجل لا يحتاج إلى موافقة صاحبه حتى يحضر. والآخرة، على جلالها الذي لا يشبه شيئًا من هذه الأمثلة، لا تحتاج إلى تصديق المسافرين إليها كي تأتي.

إنما يحتاج المسافر إلى التصديق لأنه الذي يحدد استعدادَه؛ فمن عرف أن الرحلة طويلة حمل زاده، ومن علم أن الطريق ينتهي إلى حساب راقب ما يصنع، ومن صدق أن وراء الموت لقاءً لم يجعل لحظته العاجلة حاكمةً على مصيره.

أما من قال: لن أصدق إلا حين أصل، فقد اختار معرفةً لا تنفع في الاستعداد؛ لأنه لا يمكن حمل الزاد بعد انتهاء الرحلة، ولا إعادة بناء الطريق بعد الوصول. إن حكمة الخبر أن يسبق الحدث، وحكمة الإيمان أن يسبق الرؤية.

لا يتغير الموعد، لكن يمكن أن يتغير الإنسان

تبدو حتمية الآخرة لأول وهلة خبرًا يغلق كل الاحتمالات، لكنها في زمن الدنيا تفتح أعظم احتمال: أن يتغير الإنسان قبلها. لا يستطيع تبديل ما قضى الله، لكنه يستطيع أن يبدل ما في نفسه؛ لا يملك تأخير الساعة، لكنه يملك أن يبادر بالتوبة؛ لا يمنع الحشر، لكنه يستطيع أن يهيئ وجهًا لا يخزى عند الحشر؛ لا يلغي الكتاب، لكنه يستطيع ما دام حيًّا أن يكتب فيه ما يسره أن يراه.

إن ثبات الموعد لا يدعو إلى السكون، بل إلى الحركة؛ فلو كانت الآخرة احتمالًا يمكن ألا يقع، لوجد التسويف لنفسه مجالًا، أما وهي حق، فإن كل لحظةٍ قبلها تكتسب

قيمةً لا تعوض. إننا لا نستطيع تغيير النهاية العامة، لكننا نستطيع، برحمة الله وهدايته، أن نغير مآلنا فيها.

وهذا هو موضع الرجاء؛ ليس رجاءً في أن تلغى الحقيقة، بل في أن نلقاها وقد غفر الله لنا؛ وليس أمنيةً بأن لا يكون الحساب، بل دعاءً أن يكون حسابًا يسيرًا؛ وليس تمنّيًا لكونٍ بلا نار، بل فرارٌ إلى الله منها؛ وليس صناعةً للجنة، بل سعيٌ إليها ورجاءً لرحمة من أعدها.

إن المؤمن لا يطلب من الله أن يجعل الوهم حقًّا، بل يسأله الثبات على الحق حتى يلقاه.

يومٌ واحد ونهاياتٌ مختلفة

ستجمع الآخرة البشر كلهم، لكنها لن تسوي بين من عاشوا مواقف متناقضة من الله والحق. فعمومية البعث لا تعني وحدة الجزاء، كما أن اشتراك الطلاب في الامتحان لا يعني تساوي النتائج. إن اليوم واحد، والحاكم واحد، والميزان واحد، لكن الكتب مختلفة.

يقول تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾. لا ينشئ كل فريقٍ داره باعتقاده، بل يقوده إيمانه وعمله، بفضل الله وعدله، إلى الدار التي أعدها الله. والمؤمن لا يدخل الجنة لمجرد أنه تخيلها، والمنكر لا يدخل النار لأن خوف المؤمنين صنعها له؛ إنما يقع الجزاء وفق حقيقة العبودية والعمل والحساب.

إن جعل الآخرة مجرد معنى نفسي يطمس هذا الفصل؛ فقد يحمل كل إنسان حالته الشعورية الخاصة، ولا تكون هناك محكمةٌ موضوعية تفصل بين الحق والباطل. أما

الآخرة القرآنية فـ يوم الفصل؛ لأنها تنهي خلط الدنيا، وتضع الحدود النهائية بين الطرق التي بدت متجاورةً على الأرض.

لقد عاش المؤمن والمنكر في الحي نفسه، وقد اشتركا في اللغة والمهنة والطعام، لكن أحدهما كان يتحرك في باطنه نحو الله، والآخر يعرض؛ فلما انتهت مساحة التجاور الدنيوي، ظهر افتراق الوجهتين.

الحقيقة التي تلاحق الإنسان برحمة الإنذار

ليست الآخرة عدوًّا يترصد الإنسان، بل حقيقةٌ أخبره الله بها رحمةً حتى لا يصل غافلًا. والإنذارات المتكررة في القرآن ليست رغبةً في إثقال الحياة بالخوف، وإنما محاولاتٌ لإنقاذ الإنسان من وهمٍ لا يستطيع إنقاذه حين يقع الموعد.

كل ذكرٍ للموت والبعث والحساب نداءٌ يقول له: لا تجعل العاجل يحجبك عن الآتي، ولا تظن أن نسيانك يساوي النجاة، ولا تحمل إلى الأبد ما تستطيع أن تتوب منه الآن. إن الآخرة ثابتة، لكن حالك ليست ثابتة بعد؛ كتابك مفتوح، وباب العودة قائم، والمهلة لم تنته.

فإذا كانت الحقيقة قادمةً إليك، فإن الرحمة أن تعرفها؛ وإذا كان الحساب واقعًا، فإن النعمة أن تراجع نفسك قبله؛ وإذا كان الله قد وعد بالمغفرة لمن تاب، فإن الغفلة عن التوبة ليست حرية، بل ضياعٌ لأوسع أبواب النجاة.

النهاية التي تكشف خطأ البداية

سيصل بعض الناس إلى الآخرة فيكتشفون أن الخطأ لم يكن في تفصيلٍ صغير من حياتهم، بل في نقطة البداية التي نظروا منها إلى الوجود. جعلوا الإنسان مركز الحقيقة، والحس حد المعرفة، والدنيا نهاية الطريق، والمنفعة معيار القيمة؛ فبُنيت اختياراتهم كلها فوق هذه المقدمات. وحين تظهر الآخرة، لا يسقط إنكارٌ واحد فحسب، بل يسقط العالم الفكري الذي أنتجه.

وسيصل المؤمن فيكتشف أن ما آمن به كان أعظم مما تصور، وأن خبر الله لم يمنحه فقط تفسيرًا للحياة، بل دلّه على حقيقتها القادمة. قد يكون قد قصر وخاف ورجا وتاب، لكنه لم يعش داخل كونٍ مغلق بالموت، كان يعرف أن الخط الأخير في الدنيا ليس نهاية الكتاب.

إن الآخرة تحاكم البدايات بقدر ما تحاكم الأعمال؛ فهي تكشف من أي تصورٍ خرج الفعل، ولمن كان، وما الغاية التي توجه إليها. ولذلك لا تكون العقيدة هامشًا نظريًّا؛ إنها الجذر الذي يمد السلوك بمعناه واتجاهه، وإن بقيت حقيقة الآخرة مستقلةً عن مقدار استجابة الإنسان لها.

الآخرة ليست احتمال المؤمن، بل مصير الإنسان

وهنا يبلغ الفصل قاعدته الجامعة:

الآخرة ليست احتمالًا يخص المؤمن، بل مصيرٌ يشمل الإنسان؛ وليست طريقًا يدخلها من صدّق، بل نهاية الطريق الذي يسلكه المصدق والمكذب جميعًا.

الإيمان لا يمنح المؤمن حق الذهاب إليها، فقد كُتب الذهاب على الجميع، لكنه يمنحه نور الطريق، والاستعداد للقاء، والقدرة على أن يجعل حياته متجهةً بقصدها إلى ما يتجه إليه عمره بالضرورة. والإنكار لا يمنح صاحبه إعفاءً، بل يسلبه هذا النور ويتركه يتقدم نحو الموعد وهو يظن أنه متحررٌ منه.

إن الآخرة آتيةٌ بالمؤمن الذي انتظرها، وبالمنكر الذي استبعدها، وبالغافل الذي نسيها، وبالمتردد الذي ظن أن عدم الحسم سيعفيه من النتيجة. آتيةٌ بالأولين والآخرين، بالملوك والرعايا، بالظالمين والمظلومين، بمن حفظ التاريخ أسماءهم ومن ضاعت أسماؤهم من كل سجل بشري.

ولا أحد يأتيها بوصفه متفرجًا؛ كل إنسان هو أحد أطراف قصتها، وكل نفسٍ تحمل جوابها، وكل كتابٍ يروي الطريق الذي انتهى بصاحبه إليها.

إن الحقيقة لا تسأل الإنسان إن كان يرغب في الوصول، لكنها أخبرته قبل الوصول بما يجعله قادرًا على اختيار حاله عنده. وهذه هي رحمة الوحي، وجدية العمر، ومعنى التكليف.

فالطريق يمضي، والزمن ينقص، والموعد ثابت، والناس جميعًا سائرون. وليس السؤال: من سيصل إلى الآخرة؟ فالجميع سيصلون؛ وإنما السؤال الذي تنعقد عليه الحياة كلها:

كيف سنصل، وماذا سنحمل، وبأي وجهٍ سنقف أمام الله حين تصبح الحقيقة التي أخبرنا بها العالم الوحيد الذي لا خروج منه؟

الخاتمة

حين لا تعود الحقيقة في حاجةٍ إلى برهان

لم يكن مقصد هذا الكتاب أن يجعل الآخرة أكثر حقيقةً مما هي عليه؛ فحقائق الله لا تزداد ثبوتًا بدفاع المدافعين عنها، ولا تنقص من واقعيتها شبهات المنكرين، ولا تنتظر أن يمنحها العقل البشري شهادة القبول كي تدخل في نظام الوجود. إنما كان المقصد أن يعيد الإنسان إلى موضعه الصحيح أمامها: مخلوقًا بلغه الخبر، ومنح زمنًا محدودًا ليختار موقفه، ثم هو صائرٌ إلى ما أُخبر به، سواء عاش مستعدًّا له أم أمضى حياته مستبعدًا وقوعه.

فالآخرة ليست فكرةً نحتاج إليها لنمنح الدنيا معنًى، وإن كانت تعيد تشكيل معنى الدنيا في قلب المؤمن؛ وليست افتراضًا أخلاقيًّا اخترعناه كي نطمئن إلى أن العدالة ستكتمل، وإن كانت الدار التي يظهر فيها عدل الله كاملًا؛ وليست عزاءً نفسيًّا صنعه الخوف من الموت، وإن وجد فيها المؤمن أعمق عزائه؛ وليست رمزًا لانتصار الخير في الضمير أو التاريخ، وإن كانت اليوم الذي ينكشف فيه انتصار الحق على كل ما حجبه في الأرض.

إنها قبل ذلك كله وبعده حقيقةٌ أخبر الله بها، ووعدٌ لا يتخلف، وموعدٌ لا يُلغى، وواقعةٌ لا تحتاج إلى تصديق الإنسان لكي تقع.

وهذه هي النقطة التي حاول الكتاب تثبيتها من وجوهٍ متعددة: أن نفع الإيمان بالآخرة شيء، وحقيقة الآخرة في ذاتها شيءٌ سابق عليه، وأن ما تمنحه للمؤمن من غايةٍ وصبرٍ واتزان لا يُنشئها، بل ينشأ عن التصديق بها؛ وأن الإنسان لا يؤمن لأنها مفيدةٌ فحسب، وإنما ينتفع بها لأنها حق. فلو لم يدرك فوائدها، أو لم يشعر بحاجته إليها، أو

اختار لنفسه معنًى آخر للحياة، لما تبدل من وعد الله شيء، ولما خرج من طريق البعث والحساب.

إن الحقيقة لا تكون حقًّا لأنها تريحنا، ولا تصبح وهمًا لأنها تخيفنا، وقد تكون أثقل الحقائق على النفس هي أكثرها اتصالًا بمصيرها. والآخرة ثقيلةٌ لأنها لا تعد الإنسان بالبقاء فقط، بل تضعه أمام المسؤولية؛ لا تقول له إن الموت ليس النهاية فحسب، بل تقول إن كل ما فعله قبل الموت سيعود إليه بعده، وإن الحياة التي ظنها ملكًا عابرًا كانت امتحانًا مكتوبًا، وإن الزمن لم يكن يمحو الأعمال، بل كان ينقلها من لحظة الفعل إلى يوم الجزاء.

الآخرة لا تبدأ حين نصل إليها

يظن الإنسان، بحكم وقوعه داخل الزمن، أن الآخرة حقيقةٌ ستبدأ في المستقبل، كما تبدأ حوادث الدنيا حين يحين وقتها. لكن الخبر الإلهي يحرره من هذا التصور الضيق؛ فالآخرة ثابتةٌ في علم الله، مقضيةٌ بوعده، معدّةٌ لخلقٍ سيصلون إليها. إنها مؤجلةٌ عن حس الإنسان، لا معلقةٌ من جهة تحققها؛ غائبةٌ عن عينه، لا عن علم ربه؛ لم تدخل تجربته بعد، لكنها لم تكن يومًا احتمالًا في القضاء الإلهي.

حين تقوم الساعة لن تنتقل الآخرة من الوهم إلى الحقيقة، بل ينتقل الإنسان من الخبر إلى المشاهدة؛ ولن يبدأ صدق الوعد لحظة وقوعه، بل يظهر الصدق الذي كان ثابتًا منذ أخبر الله. إن الجبل لا يبدأ وجوده حين ينقشع عنه الضباب، والطريق لا ينشأ عندما يراه المسافر، والحقيقة الغيبية لا تُخلق عندما يدخلها الحس.

ولهذا كان قول الله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ مفتاحًا لفهم التحول الأخروي كله، فالغطاء يُكشف عن الإنسان، لا عن علم الله، والبصر يشتد بعد أن كان محجوبًا، والحقيقة تظهر بعد أن كانت غيبًا. إن الذي يتغير هو إدراك المخلوق، أما وعد الخالق فلا يتغير.

وسيعرف الإنسان يومئذٍ أن الآخرة لم تكن بعيدةً في ذاتها، وإنما كان قلبه بعيدًا عنها؛ وأن الغيب لم يكن فراغًا، بل كان امتلاءً لا تستطيع حواسه بلوغه؛ وأن الحقيقة لم تكن تنتظر أن يقترب منها بوعيه، بل كان وجوده كله يقترب منها بعمره.

لا الإيمان يمنحها الوقوع ولا الإنكار يسلبها إياه

لقد فصل الكتاب بين حقيقتين كثيرًا ما تختلطان: حقيقة الآخرة، وموقف الإنسان منها. الآخرة من فعل الله ووعده وقضائه، والموقف من فعل الإنسان واختياره. فلا يستطيع المحدود بتصديقه أن يضيف إلى قضاء الله ثبوتًا، ولا يستطيع بتكذيبه أن يفتح في الوعد احتمال التخلف.

المؤمن لا يخلق الجنة برجائه، ولا المنكر يطفئ النار باستبعاده، ولا المتردد يعلّق الحساب لأنه لم يحسم رأيه. كل واحدٍ منهم يتحرك نحو اليوم نفسه، وإنما يختلف ما يحمله إليه. الإيمان يبني الاستعداد، والإنكار يهدمه، والتردد يستهلك زمنه، والغفلة تسرق من الإنسان فرصته؛ أما اليوم الآخر فباقٍ وراء هذه المواقف كلها، لا يتغير بها، بل يكشفها ويحكم عليها.

إن أعداد المؤمنين لا تجعل القيامة أقرب، وأعداد المنكرين لا تجعلها أبعد. لو آمن بها أهل الأرض جميعًا، لكان في إيمانهم نجاتهم لا إنشاء موعدها؛ ولو أنكروها جميعًا، لكان

في إنكارهم هلاكهم لا إلغاء وقوعها. فالله غنيٌّ عن تصديقهم، ووعده غنيٌّ عن حراستهم، وإنما هم الفقراء إلى معرفة الحقيقة قبل أن تحيط بهم.

ومن هنا لا يدافع المؤمن عن الآخرة لأنه يخشى أن يسقطها الجدل، بل يدعو إليها رحمةً بمن يسيرون نحوها. لا يخاف على الحقيقة من الإنكار، بل يخاف على المنكر من الحقيقة حين تظهر؛ ولا يريد من الناس أن يمنحوا خبر الله شرعيةً بشرية، بل يريد لهم أن ينجوا بتصديقه.

لا يستطيع الإنسان أن يختار نهايةً أخرى

لقد اختار الله للإنسان أن يكون مختارًا في دار التكليف، لكنه لم يجعل إليه أمر البداية والنهاية. لم يختر أن يوجد، ولم يصنع جسده، ولم يحدد قوانين حياته، ولم يملك دفع الموت، ولن يملك منع البعث. حريته حقيقية، لكنها تعمل داخل ملك الله؛ يختار بها الطاعة أو المعصية، والإيمان أو الكفر، والعدل أو الظلم، لكنه لا يختار كونًا بلا حسابٍ يريحه من نتيجة اختياره.

إن من أغرب أوهام الإنسان أن يتعامل مع عدم إيمانه بالآخرة كأنه قرارٌ بالانسحاب منها؛ كأنها مؤسسةٌ لا يدخلها إلا المنتسبون إليها، أو طريقٌ ديني يسلكه المؤمنون وحدهم. لكن البعث ليس انتماءً فكريًّا، بل قضاءٌ على الخلق؛ والحشر لا يستدعي المؤمنين فقط، بل يجمع الأولين والآخرين؛ والحساب لا يقع على من آمن بوجوده وحده، بل على كل من بلغته الحجة وقامت عليه المسؤولية.

ليس للمنكر عدمٌ خاص يذهب إليه، ولا للمؤمن بعثٌ خاص يصنعه يقينه. هناك موتٌ يعم، وبعثٌ يعم، وحشرٌ يعم، ثم يفصل الله بين عباده بالحق. إن الاختلاف في الطريق لا يغير أصل الوصول، لكنه يغير معنى الوصول ونتيجته.

يستطيع الإنسان أن يقول: لن أؤمن، لكنه لا يستطيع أن يقول للتراب: لا تخرجني؛ وأن يعلن أن الحساب فكرةٌ مرفوضة، لكنه لا يملك أن يمحو كتابه؛ وأن يرفض سلطة الغيب، لكنه لا يخرج من علم الله لحظةً واحدة. إنكاره يقع داخل الملك الذي ينكره، وتُكتب كلمته في الكتاب الذي يستبعده، وينقص عمره نحو اليوم الذي يظن أنه لن يأتي.

حين يصبح المنكر شاهدًا على ما أنكر

لن يبقى الإنكار إلى الأبد، ليس لأنه سيهزم الحقيقة زمنًا ثم تنتصر عليه، بل لأنه لا يستطيع البقاء أمام المشاهدة. سيأتي يومٌ لا يوجد فيه منكرٌ بوقوع القيامة، لأن الجميع قائمون فيها، ولا مترددٌ في البعث، لأن الأجساد خرجت من الأجداث، ولا مؤولٌ للجنة والنار إلى حالتين نفسيتين، لأن الدارين قد ظهرتا بوصفهما حقيقتين لا رمزين.

لكن انتهاء الإنكار لا يعني انتهاء تبعته، فالاعتراف المتأخر لا يعيد زمن العمل. سيعرف المكذب أن الآخرة حق، لكنه سيعرفها بعد أن صار اليقين اضطرارًا، وبعد أن انقطعت الصلة بين المعرفة وتغيير المصير. وحين يقول: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، فإنه لا يقدم للآخرة شهادةً تحتاج إليها، بل يعلن انهيار الحجاب الذي كان على بصيرته.

لقد أبصر، لكن بعد أن انتهى زمن الإيمان بالغيب، وسمع، لكن بعد أن انقطع زمن الاستجابة، وأيقن، لكن يقينه صار شاهدًا على ضياع الفرصة. كان يستطيع في الدنيا أن يرى بخبر الله، فطلب أن يرى بعينه، فلما رأى بعينه لم يعد يملك ما كان يستطيع فعله يوم كان الخبر غيبًا.

وهذه هي المأساة الكاملة: أن يصل الإنسان إلى اليقين في اللحظة التي يفقد فيها القدرة على بناء حياته عليه.

الآخرة لا تكتسب معناها منا

كما لا تكتسب الآخرة وجودها من الإنسان، فإنها لا تنتظر منه أن يمنحها معناها. ليست صفحةً بيضاء يكتب عليها ما يريد، بل دارًا لها حقيقتها ونظامها وقوانينها وموازينها. سماها الله يوم الدين، ويوم الحساب، ويوم الفصل، والواقعة، والحاقة؛ فحدد بهذه الأسماء وجوه حقيقتها، ولم يتركها سائلةً في التأويل حتى يحولها كل عصرٍ إلى ما يوافقه.

قد تمنح الآخرة معنى لحياة المؤمن، لكن ذلك لا يعني أنها هي مجرد «المعنى». إنها واقعٌ يترتب على الإيمان به معنى، كما يترتب على إنكاره مصير. ولو اختزلناها في الوظيفة المعنوية، لأصبح الإنسان هو الأصل، وصارت الآخرة أداةً لخدمته؛ فإن وجد بديلًا يمنحه المعنى استغنى عنها. أما الوحي فيقلب العلاقة: الآخرة هي الحقيقة، والإنسان مطالبٌ بأن يعيد بناء معناه على ضوئها؛ فإن اختار معنًى يناقضها لم يغيّرها، بل عاش داخل معنى زائف ستكشفه النهاية.

إن الحقيقة لا تسأل: هل أنا نافعةٌ لنظامك النفسي؟ بل تسأل الإنسان: هل نظامك النفسي والفكري مطابقٌ لما هو حق؟ وقد يجد بعض الناس راحةً في الإنكار، كما يجد

النائم راحته وهو غافلٌ عن الخطر، لكن الراحة لا تكون دليلًا على السلامة، والقلق لا يكون دليلًا على بطلان ما يقلقنا. أحيانًا يكون الخوف أول علامات اليقظة، وتكون الطمأنينة ثمرةً للغفلة لا للإيمان.

لذلك لا نقول: الآخرة حق لأنها تمنح الحياة معنًى؛ بل نقول: لأن الآخرة حق، فإن الحياة لا يمكن أن يكون معناها مناقضًا لها. ولا نقول: لا بد أن توجد كي يكتمل العدل، بل نقول: لقد أخبر الله بوجودها، ومن حكمتها أن يظهر فيها عدله. فالعدل والمعنى والغاية ثمارٌ لفهم الحقيقة، لا أسبابٌ أنشأتها.

الدنيا لا تكون وهمًا لأن الآخرة هي الحقيقة الأبقى

إن إثبات الآخرة بوصفها الحقيقة الآتية لا يعني إلغاء الدنيا أو اعتبارها مشهدًا بلا قيمة؛ بل إن واقعيتها المؤقتة جزءٌ من حقيقة التكليف. هنا يعمل الإنسان، ويختار، ويعمر، ويصلح، ويقاوم الظلم، ويؤدي الأمانة؛ وكل ذلك حقيقيٌّ إلى درجة أن الله سيحاسبه عليه. لو كانت الدنيا وهمًا لما ترتب عليها مصير، ولو كان العمل فيها بلا قيمة لما حُفظ في الكتاب.

لكنها ليست الحقيقة النهائية؛ إنها دارٌ واقعيةٌ مؤقتة تفضي إلى دارٍ واقعية باقية. قيمتها ليست في أن تصبح بديلًا عن الآخرة، بل في أنها المكان الوحيد الذي يستطيع الإنسان فيه أن يعد نفسه لها. ولذلك لا يدعو الإيمان بالآخرة إلى الهرب من الحياة، بل إلى أخذها بالجدية التي تستحقها؛ لأن كل لحظةٍ فيها قابلةٌ لأن تمتد إلى الأبد بنتيجتها.

إن الذي يظن أن استحضار الآخرة يحقر الدنيا لم يفهم العلاقة بينهما؛ فالآخرة هي التي تجعل فعلًا صغيرًا في الدنيا ذا وزن، ودمعةً خفيةً محفوظة، وكلمةً عادلةً باقية،

وحقًّا ضائعًا مطلوبًا. لكنها لا تمنح هذه الأشياء وزنها لأنها فكرةٌ معنوية، بل لأن هناك حسابًا حقيقيًّا ستظهر فيه أوزانها.

فالمؤمن لا يترك الدنيا لأنها فانية، بل يرفض أن يجعلها إلهًا لأنها فانية؛ يعمل فيها، لكنه لا يحبس غايته داخلها؛ يحب من طيباتها، لكنه لا يبيع آخرته بها؛ ويحزن على خسارتها بقدر، لكنه لا يعد حكمها الحكم الأخير.

المعنى ثمرة الإيمان لا مصدر الحقيقة

لقد شكّل هذا التمييز قلب الكتاب: الآخرة لا تكون حقيقةً لأنها تمنح المؤمن معنى، وإنما تمنح المؤمن معنى لأنه صدق حقيقتها. إن المعنى يقع في حياة الإنسان، أما الآخرة فتقع في نظام الوجود؛ الأول يتشكل بالإيمان، والثانية ثابتةٌ بوعد الله.

حين يؤمن الإنسان بها، يعرف أن عمره ليس حادثةً يتيمةً بين عدمين، وأن عمله لا ينتهي بانتهاء صداه، وأن الموت لا يبتلع قصته، وأن الظلم لا يملك أن يكون الحكم الأخير. هذه المعاني تنشأ في وعيه، وتغير سلوكه، وتمنحه غايةً تتجاوز العاجل؛ لكنها لا تعود إلى الوراء لتخلق الآخرة التي أنشأتها.

إن الشمس تمنح الأشياء ضوءها، ولا تمنحها الأشياء وجود الشمس لأنها أضاءت بها؛ وكذلك الحقيقة الأخروية تضيء معنى الحياة، ولا تستمد حقيقتها من هذا المعنى. ولو أغلق الإنسان قلبه عن نورها، لبقيت قائمةً، لكنه هو الذي يعيش في ظلمةٍ صنعها إعراضه.

ومن هنا نفهم أن الكافر قد يصنع لنفسه معنىً دنيويًّا، ويجد غايةً مؤقتةً، ويقيم نظامًا أخلاقيًّا، ويشعر بالرضا؛ لكن نجاحه في بناء تجربةٍ ذاتية لا ينفي الآخرة، كما لا ينفي

الموت. السؤال ليس: هل استطاع أن يعيش دون شعورٍ بالحاجة إليها؟ بل: هل يستطيع أن يموت دون أن يصل إليها؟ ومهما كان جوابه النفسي عن السؤال الأول، فإن جواب الوجود عن الثاني قد حسمه خبر الله.

الحقيقة التي لا تتأثر بنا، لكنها تغيّر كل شيءٍ فينا

استقلال الآخرة عن الإنسان لا يعني أنها بعيدة الأثر عنه، بل لأنها حقيقةٌ مستقلة، يكون أثر الإيمان بها بالغ العمق. الوهم لا يستطيع أن يحمل الإنسان طويلًا حين تصطدم به الوقائع، أما الحق فيمنحه أرضًا ثابتةً يبني عليها. والمؤمن لا يستمد قوته من فكرةٍ اخترعها، بل من علمه أن ما وعد الله به لا يتغير بتغير الدنيا.

حين يُظلم يعرف أن الظالم لم يغادر سلطان الله، وحين يفقد يعرف أن ما عند الله لا يضيع، وحين يُغرى بالمعصية يعرف أن غياب أعين البشر لا يعني غياب العلم، وحين ينتصر يعرف أن النجاح الدنيوي لا يعفيه من المساءلة، وحين يموت حبيبٌ له يعرف أن الموت لم يخرجه من قصة الخلق.

لكن هذه الآثار كلها لا تُستعمل لإثبات الآخرة من داخل الحاجة النفسية، بل تُفهم بوصفها استجابة النفس لحقيقةٍ ثبتت خارجها. إن المؤمن لا يقول: سأتمسك بها لأنها تجعلني أقوى، بل يتمسك بها لأنها حق، ثم يجد أن الحق يمنحه من القوة ما لا يمنحه الوهم.

ليس السؤال هل ستأتي، بل كيف ستجدنا

لقد فرغ القرآن من جواب السؤال عن أصل الوقوع: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، و﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾، و﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾. فلا ينبغي أن يظل

الإنسان يدور عمره كله حول سؤالٍ أجاب عنه الله، ثم يترك السؤال الذي وُكل إليه: ماذا قدّمت؟

إن الساعة لا تنتظر أن ينتهي بحثنا، والموت لا يؤجل نفسه حتى يستقر رأينا، والكتاب لا يوقف الكتابة لأننا ما زلنا مترددين. كل يومٍ نعيشه جوابٌ عملي، وكل اختيارٍ سطر، وكل حقٍ نؤديه أو نمنعه شيءٌ سنلقاه.

ولذلك يكون السؤال الأكثر صدقًا: كيف ستجدني الآخرة إذا جاءت؟ هل تجد قلبًا كان يراها بنور الوحي، أم نفسًا لم تمنحها من وعيها إلا ما تبقى بعد الدنيا؟ هل تجد حقوقًا أُديت، أم مظالم أخفيت؟ هل تجد توبةً سبقت انغلاق الباب، أم أمنية رجوعٍ تولد بعد انقطاع الرجوع؟

إن الإنسان لا يملك أن يحدد لحظة وصول الحقيقة إليه، لكنه يملك في هذه اللحظة أن يبدأ تصحيح ما ستجده.

لا خلاص بالهروب من الاسم

قد يحاول المرء النجاة من ثقل الآخرة بتغيير اسمها؛ يسمي البعث امتدادًا رمزيًّا، والحساب أثرًا نفسيًّا، والجنة سلامًا داخليًّا، والنار قلق الضمير. لكنه لا يغير بذلك إلا اللغة التي يحجب بها الحقيقة عن نفسه. ستأتي القيامة باسمها القرآني ومدلولها الواقعي، لا بالصورة المخففة التي صاغها التأويل.

إن النار لا تنطفئ لأنها سُميت رمزًا، والجنة لا تتلاشى لأنها رُدّت إلى حلم، والقبور لا تمتنع عن إخراج من فيها لأن فلسفةً مادية حكمت باستحالة البعث. الحقائق لا تخضع للمعاجم التي يصوغها الخائفون منها.

وما دام الإنسان قادرًا على إعادة تفسير كل شيء، فإن الحسم لا يقع في اللغة وحدها، بل في التسليم لمصدر الخبر: ماذا أراد الله بما أخبر؟ فإذا كان الخطاب يتحدث عن أجسادٍ تبعث، وخلقٍ يحشرون، وكتبٍ تنشر، وموازين توضع، وصراطٍ يُضرب، وجنةٍ ونار، فإن أمانة التلقي تقتضي إثبات ما أثبته الوحي، دون أن نجعله أسيرًا لضيق الحس أو خوف العصر من الغيب.

إن الإيمان لا يعني أن نحتفظ بأسماء الآخرة بعد أن نفرغها من حقائقها، بل أن نثق بأن خبر الله أصدق من المعايير التي تريد اختزال الوجود في المشهود.

كلنا سنؤمن بالحقيقة، لكن ليس في الوقت نفسه

سيأتي يومٌ يؤمن فيه الجميع بحقيقة الآخرة بمعنى الإقرار القهري؛ فالمشاهدة ستنهي الإنكار. لكن المؤمن آمن في الوقت الذي كان للإيمان فيه قيمة التكليف، والمنكر سيقر في الوقت الذي صار الإقرار فيه نتيجةً لا اختيارًا.

هذه ليست مفارقةً زمنيةً صغيرة، بل الفرق بين النجاة والحسرة. إن قيمة الإيمان ليست في مجرد موافقة العقل للحقيقة، بل في توقيت هذه الموافقة وما تصنعه من عمل. من صدق قبل الرؤية عاش على ضوء الخبر، ومن انتظر الرؤية لم يبق له بعد الضوء طريقٌ يسلكه؛ فقد وصل إلى نهاية الطريق.

إن الله لم يطلب من الإنسان أن يخلق الحقيقة بتصديقه، بل أن يصدق قبل أن تُلزمَه بنفسها. وهذه هي كرامة الاختيار: أن يُعطى من الآيات ما يهديه دون أن تُرفع عنه كل الحجب، فيقرر هل يثق بربه أم يجعل الحس إلهًا للمعرفة.

وعندما تزول الحجب، تزول معها هذه الكرامة الامتحانية، فلا يبقى إلا الخضوع للواقع.

العالم الذي لا يحتاج إلى موافقتنا

ستأتي الآخرة كاملةً، لا ينقص منها ركنٌ لأن بعض الناس أنكروه، ولا يتغير نظامها ليتوافق مع تصورات العصور. ستقوم الساعة في وقتها، ويخرج الناس من قبورهم، ويقفون بين يدي الله، وتُعرض الأعمال، ويقع الفصل، ويصير الخلق إلى ما قضى الله بينهم.

لن تسأل الحقيقة يومئذٍ: كم واحدًا آمن بي؟ ولن يحتاج الحساب إلى تصويتٍ على عدالته، ولن يعقد المنكرون مؤتمرًا أخيرًا لتأجيل النتيجة. لقد انتهى زمن بناء التصورات، وبدأ زمن انكشاف ما كان.

إن العالم الأخروي لا يحتاج إلى موافقتنا لأنه ليس من صنعنا، ونحن الذين سنحتاج إلى رحمة الله فيه، وإلى حسنةٍ قدمناها، وتوبةٍ صدقنا فيها، وقلبٍ لقينا الله به.

وكلما فهم الإنسان أن الحقيقة مستقلةٌ عنه، تحرر من عبث محاولة إخضاعها لرغبته، وانتقل إلى العمل الممكن: إخضاع رغبته للحق، وتصحيح نفسه قبل أن يقف في اليوم الذي لا تُصحح فيه الأعمال.

الحقيقة لا تتبدل، ولكن الرحمة فتحت باب التبدل لنا

إذا كانت الآخرة لا تتغير، فإن الإنسان يستطيع أن يتغير ما دام حيًّا. وهذه هي النافذة التي ينبغي أن ينتهي إليها الكتاب، حتى لا تتحول حتمية الموعد إلى يأس، ولا

صرامة الحقيقة إلى شعورٍ بالانغلاق. لقد جعل الله باب التوبة مفتوحًا في دار العمل، وجعل الحسنة تمحو السيئة، وفتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يطلب منهم عصمةً لم يخلقوا لها، بل صدق العودة كلما زلت القدم.

لا نستطيع أن نطلب كونًا بلا حساب، لكننا نستطيع أن نسأل الله عفوًا في الحساب، ولا نملك إلغاء النار، لكننا نستطيع أن نفر منها إليه، ولا نصنع الجنة، لكننا نرجو رحمته التي يدخل بها عباده إليها، ولا نوقف الموت، لكننا نستطيع أن نحيا قبله على ما يرضيه.

إن الحقيقة ثابتة، لكن الكتاب ما يزال مفتوحًا، والموعد قادم، لكن هذه اللحظة لم تنته، والماضي لا يعود، لكن التوبة تستطيع أن تغير معناه في ميزان الله. هنا لا تكون معرفة الآخرة عبئًا يشل الإنسان، بل نداءً ينقذه من التأجيل: ما دامت قادمة، فليس لك أن تبدد الطريق، وما دام الله قد أخبرك، فليس لك عذر الغافل، وما دام قد فتح لك بابه، فلا تجعل الخوف منها يبعدك عنه، بل اجعله يعيدك إليه.

حين تبلغ القصة تمامها

لم يُخلق الإنسان ليذوب في التراب وتُغلق قصته قبل أن يُعرف صدقه من كذبه، ولا ليُترك الظالم والمظلوم في نهايةٍ واحدة، ولا لتضيع الأعمال في فراغ الزمن. لقد خُلق للابتلاء، وأُعطي الإرادة، وأُرسل إليه الوحي، ثم يموت ويُبعث ليبلغ وجوده تمام القصة التي بدأها الله بالخلق.

والآخرة ليست ملحقًا أخيرًا بهذه القصة، بل الفصل الذي تنكشف به الفصول السابقة، فيها يعرف الإنسان لماذا كان مختارًا، ولماذا أُمر ونُهي، ولماذا لم يكن تأخر

الجزاء إهمالًا، ولماذا حُفظت الأعمال وإن نسيها، ولماذا لم يكن الموت قادرًا على كتابة الكلمة الأخيرة.

إنها لا تستمد حقيقتها من كونها تفسر القصة، لكن القصة لا تُفهم كاملةً دونها؛ فالحقيقة أسبق من التفسير، والمصير أسبق من وعينا بمعناه. وحين يصل الإنسان إليها، يعرف أن كل ما في الدنيا كان متجهًا نحو هذه اللحظة: الرسل، والكتب، والإنذارات، والفرص، والاختيارات، والآلام، والمظالم، والتضحيات، والأسرار.

هناك تبلغ الأشياء أسماءها الأخيرة، وتفقد الصور سلطانها، ويظهر الوزن الذي حجبه الضجيج، ويعرف كل إنسان أن حياته لم تكن مهملةً في كونٍ أصم.

الكلمة الأخيرة

الآخرة ليست معنًى اخترعه المؤمن كي يعيش، بل حقيقةٌ آمن بها المؤمن كي يحسن الحياة قبل أن يلقاها. وليست وهمًا يختفي إذا أنكره الكافر، بل موعدٌ سيختفي عنده إنكاره. وليست احتمالًا يقف خارج العالم منتظرًا رأي البشر، بل نهايةٌ مقررة يتحرك العالم كله نحوها.

لا إيمان المؤمن يمنحها حقيقة الحدوث، ولا إنكار الكافر يسلبها إياها. هذا صدق خبر الله فاستعد، وذاك رد الخبر فغفل؛ أما الخبر فصدق، والوعد فحق، والساعة فآتية، والبعث فواقع، والرجوع إلى الله حتميٌّ على الجميع.

سيأتي يومٌ لا تبقى فيه الآخرة موضوعًا لكتاب، ولا قضيةً لمناظرة، ولا خبرًا يُتلى على الأسماع؛ ستصبح هي المكان والزمان والمشهد، وسيصبح الذين اختلفوا فيها قائمين داخل حقيقتها. عندئذٍ لن يقول أحد: هل هي موجودة؟ بل سيقول كل إنسان، بلسانه

أو بحاله: ماذا صنعتُ يوم كان الإيمان بها ممكنًا، والعمل لها متاحًا، والرجوع إلى الله بابًا مفتوحًا؟

إنها لا تنتظر إيماننا، لكننا ننتظرها وإن غفلنا؛ ولا تحتاج إلى أن نصدقها، لكننا نحتاج إلى التصديق قبل أن نراها؛ ولا يتوقف مجيئها على استعدادنا، لكن مصيرنا كله يتوقف على ما أعددناه للقاء الله فيها.

فالزمن يمضي، والعمر ينقص، والكتاب يُكتب، والحقيقة تقترب؛ لا لأنها كانت بعيدةً في علم الله، بل لأن الحجاب بيننا وبينها يرقُّ مع كل يوم، حتى إذا انتهى الأجل أو قامت الساعة، انفتح الباب الذي لا يُغلق بعده، ورأى الإنسان أن ما كان يسميه غيبًا لم يكن أقل حقيقةً مما كان يلمسه، بل كان الحقيقة الأبقى التي مضى إليها كل ما لمس ورأى.

الآخرة قادمةٌ لا لأننا نحتاج إلى مجيئها، ولا لأن المؤمنين انتظروها، ولا لأن العدل الإنساني عجز فاخترعها؛ بل لأنها وعد الله، ووعد الله حق.

فمن آمن بها لم يخلقها، وإنما أبصرها قبل انكشافها؛ ومن أنكرها لم يلغها، وإنما أغلق عينيه وهو يمضي إليها؛ حتى إذا وقعت الواقعة، أبصر الجميع، وبقي لكل نفسٍ ما قدمت.

والحمد لله الذي أخبر قبل أن يحاسب، وأنذر قبل أن يعاقب، وفتح باب الرجوع قبل يوم الرجوع إليه، ولم يترك الإنسان سُدًى، بل هداه إلى الحقيقة قبل أن تصبح الحقيقة عالمه الذي لا يغادره.

وبهذه الخاتمة، تمَّ الكتاب واكتملت فصوله السبعة، والحمد لله رب العالمين.